أبو مختار

صعلوك الزمن الرديء

رواية ساخرة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

الحمد لله الذي هدانا لهذا , ما كنّا لنهتدي , لولا أن هدانا الله , في سنوات قليلة سابقة , كانت وسائل النشر ضربا من اجتراح المعجزات , أو أن ترق أسباب السماء بسلّم , كأي انسان قبل أن يتهم بداء الكتابة , رأيت من يكتب وينشر , ورأيت من يكتب وينشر رؤوس البشر , فألقيت بدلوي مع الدلاء , إما أن ترتاش أو تأتي بحمأٍ وحجارة , لا أزعم أني من المجددين , لكني لن أكون آخر السيئين , فمن رغب عن ملتي , فاستسمحه لضياع وقته , ومن رأى أن هناك شيئا يستحق أن يطّلع عليه فقد أهوى الى قلبي بمحبته , اذ لا أعدم من غرور يجتاح روحي , , إن لم أمت بالغصة في حلقي , فسأموت حتما ولا شك بالغرور , عزائي أني لست بطامع في مكسب أو عرض من دنيا أو شهرة , فأنا زاهد بما لدي , فضلا على أن أتكسب من قلمي , رأيت الحادثات فلم أرَ الكلم يأتي لصاحبه إلا بما جاء به طير ابن برمان لصاحبه , فيختطف الأفاعي ويلقي بها في حِجره .

عزمي في ما كتبت هنا , هو أن أجتذب ابتسامة تائهة ظلت طريقها الى الشفاه , فإن أصبت فمن الله , وإن أخطأت فمن الزمان والنسيان والشيطان وطير ابن برمان , ولن أنس من ساندني في هذه الرحلة , لا أخفيكم , كانت ممتعة , هؤلاء الإخوة والأخوات الذين جعلوا ما كنت أراه حلما صعب المنال يتحقق , على نقدهم وتصويبهم وتوجيههم , وأخص الأخت الفاضلة / سهير السميري , فلولا ما كانت تبثه في نفسي من حماس وتشجيع , لرددت طرف كمي الى عيني , غيرها كثيرون , لا أستطيع أن أذكرهم , ليس جحودا , بل , لأن سهير هي الوحيدة التي تُعرف باسمها الحقيقي , وهذه من أعاجيب أبو مختار , اذ أنه رغم اختفائه خلف معرف لا يشي عن حاله , فهو ينقم على الأسماء المجهولة , لكن يحق للمؤلف ما

لا يحق لغيره , كما يحق للشاعر أن لا يتقيد بروي معين لقصيدته . من يرى نشرها في موقع الكتروني أو خلافه عليه مخاطبتي على البريد الذي سأضعه في نهاية الكتاب , كما أن من رأى فائدة بها كوصفة كبة باللبن , أو ملوخية بالأرانب , أو رأى أن يلف بها سندويتش فلافل بالشطة , فلا بأس أن يخاطبني أيضا ....

طعمت روايتي الخارقة , بصور سطوت عليها من مواقع أنترنيتية , قد أبحت لنفسي هذا ولا أرى بأسا , فهناك من يسرق مليارات ومن يسرق أراض , ومن يسرق بلاداً بأكملها , ولم يتنا ولهم أحد بملامة , فلن أعدم إغفاءة ضمائرهم وغض أبصارهم عن تلك الهنات , وهم يخرجون الجذع من مآقيهم , فلن يضرهم هذا القذى في عيني .

أخيرا , أتمنى لكم رحلة سعيدة مع الرواية .

الفصل الأول/ حديث ما جاء في الضعوي والذيب اللي يعوي .. .

(البؤساء لا دواء لهم الا الأمل)

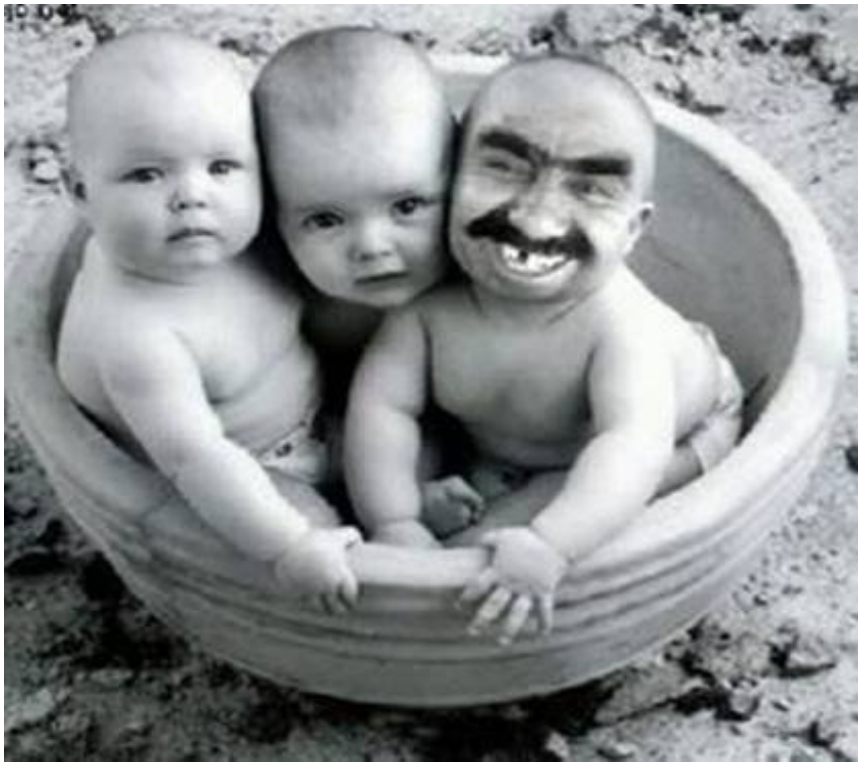

أولا يجب أن أتأكد بأن تقويم السنة الجديدة على منضدتي , لأني لم أفتتح تقويم السنة الماضية , لسبب ما , تبقت كل التقاويم التي توزع في المكتبات والهدايا المجانية في علبها دون أن يكون لها قيمة , ثانيا يجب أن أنفض تقويم السنة الجديدة لئلا تكون هناك أيام هاربة من السنين الماضية تختفي في التقويم الجديد , يحدث في أحايين أن تتكرر نفس المشاهد في حياتي . تفقد بوصلتي اتجاهها أثناء النوم , تختلط المشاعر , فأشك هل أنا نائم يقظ أم يقظ نائم .

في البلد الأسطوري , الذي يمتلك خصوصية خاصة خصا ونصا , حيث الضعوي والذئب يعوي, جاءت به أمه في رمادة , أرضعته في حمادة , حليبا مغشوشا من جرادة , نشأ مركب الأخطاء الكيميائية للشعوب المستحمرة, تفر من قسورة , خلقه كان عجيبا , لم يكن ممن قطعن أيديهن من أجله , أو من استأجرنه القوي الأمين , ولد معه شارب ضخم لا يعرف أيهما سبق صاحبه , جهدت القابلة بإفزاع الطيور من أعشاشها , ظل شنبه مأوى للنسور المهاجرة حين اشتد عوده , كانت ثقافة الشنب الضخم تسيطر على مجتمعه , تجل من يحمله , قبل أن تنحدر ثقافة الشنب الذي تقف عليه الصقور والذراع التي تتلاعب عليها صغار الماعز , حين اصبح النصراني (الذي وجد الزيت) حليق الشنب واللحية يجمع الصقور من لحى القوم وشواربهم ويضع حبالا في رؤوسهم وتجرهم غانية من بني الأصفر كقطيع الماشية , حين تبينت له حقيقة ذلك دأب على حلاقة شاربه الضخم من ذلك اليوم والنسور تحلق في السماء تبحث عن مأوى لها ولا تجد , لم يكن ممن يحلم أن يحمل على شرجع تحف به خضر المطارف , فقد لفظته أمه كرها واستوى قائما , يلتقط خشاش الأرض , يصرخ : كيف ينطق من بفمه تراب ؟ فشرب الطين كدرا , قانع وراض بمصيره فانتهره أحد المتسلطين في الضعوي وما أكثرهم وأمره أن يأكل تبنا , فأضحى يحمل سكاكر التبن في جيبه , يتسلى بها في أوقات فراغه , كان ابن عصره , يوم أن استقبلته أمه الأرض , قيل حدث خسوف للقمر وكسوف للشمس , هاج المحيط الأطلنطي على المحيط الهادئ , كاد أن يبتلعه , في ديار الضعوي الخواء والريح والأنواء . وصاحبنا (صعلوك الزمن الرديء) .

غارت مياه الآبار, انسحب النهر ليسكن وسط الأوراق ويعاكس الجغرافيا , يوما ما كان هنا نهر , بيد أنه هاجر الى بطن الأرض بجواز سفر مزور , أقعى راعي الغنم يحصي غنيماته قبل أن تستيقظ الذئاب من سباتها , وتبدأ رحلة الصيد

المعهودة في كل مساء , في بلد الضعوي نشأ في ماراثون اللقمة , لذا لا عجب أن يصبح هو متعهد الصعلكة من صغره , الوكيل المعتمد للفقر , يوم أن فتح باب السرقات الكبير , قدم أوراق مؤهلاته ليضع قدمه على أول الطريق الذي يتزاحم به الفقراء والمطربون والفنانون والمغنيات والعاهرات ولاعبوا الكرة والمعلمون ورجال الدين , منذ صغره يحترف سرقة اللقمة من فم أخته الصغيرة , يتسلق جدران المنازل ليسرق دجاجات الجيران, يغافل صاحب الدكان ليملأ جيبه من الحلوى , يبيع أصحابه طيورا نافقة , يقايض العجائز بشعر البنات, لم يكن يردعه الا ضمير يغط في نوم عميق كسبات أهل الكهف , كان ضميره هو المشكلة الوحيدة اذ أن ضميره رغم أنه ميت بالسكتة الدماغية الا أنه عبء ثقيل ,لأنه يتسابق مع أناس لا يوجد لديهم ضمير إطلاقا , عزّت اللقمة في الضعوي , كثر الوافدون , أصبحت كلمة ضمير , غريبة , وحيدة , التصقت بالفقر , الضمير كان ينقش اسمه على الأضرحة والقبور , من ارتضى صحبة الضمير يبدو مغفلا في هذا البلد , كان لابد له من استئصال ضميره كلية فذهب الى جراح مشهور , طلب منه أن يستأصل ضميره من جذوره , حذره من سرقة الكلى أو الطحال , اذ أن مثل هذه الأخطاء تحدث غالبا إما بحسن نية أو بقصد في بلد الضعوي , هكذا استكمل كل الأوراق التي تجعله يدب على ظهر الأرض بدلا من باطنها , في بلد الضعوي إن لم تكن لصا ذئبا أطلسا شديد الأذى , بالت عليك الثعالب , نقر الدجاج عينيك , تلعب الفئران بفروة رأسك لعبة الجولف , لك أن تتخيل أين تقع الحفرة .

وقف أمام المسئول عن الترشح للتوظيف أمام باب السرقات الكبرى , جاء مرشحون من كل الجنسيات إذ أن السرقات ليست حكرا على جنس دون آخر, فاللبنانيون والمغاربيون والصوماليون لديهم هذه الفضائل , الأمانة توشك أن تغادر الى الأبد , قديما كان من يصرخ (حرامي ... حرامي) يلتفت الناس في الأسواق ليروا هذا الحرامي , اما في وقتنا هذا التي حبلت به هذه القصة , كان الناس ينظرون لبعضهم بتعجب ويهمسون (ما الغريب في ذلك), قيل لي أن هناك رجلا شريفا أمينا في الضعوي تحف به طيور بيضاء وتغشاه سحائب ممطرة , أصبح الناس يتعجبون لأمره , يلتقطون له الصور التذكارية , يتمسحون به , يودعون لديه أماناتهم , قيل أن في بني فلان رجلا شريفا , ذات صبح , وجدوه قد اختفى , هكذا كانت البشر تتحول الى أساطير في الضعوي . جاء صاحبنا الى الجموع المحتشدة ليرمي سهمه مع المستهمين , بجواره من ليس يسرق الا للحاجة , من يسرق هواية , من يسرق محترفا هذا الباب الكبير , الذي

يسمى باب الحيلة , ومنهم من يسرق بلدا بأكمله ويضعه في جيبه دون أن يراه الآخرون , لذلك شعر أن نصيبه لن يكون وافرا في أن يحظى بتلك الوظيفة , أجمل ذلك حكماء الضعوي بقولهم , خلقت هذه الدنيا محفوفة بالأكدار تريدها صفوا رهوا لا تشوبها الشوائب أنّى يكون ذلك ؟ , من المتسابقين لمح ابنا لمسئول السرقات الكبرى , تيقّن أن نصيبه من تلك الوظيفة البوار , لكنه لم يفقد الأمل أن يكون أحد من تلحسهم البقرة فيزهو بعين الرجل , ما إن بدأت المسابقة وفرز المرشحين حتى طفقا يخصفان على ابن المسئول أوراق التوصيات , أجمعوا أمرهم أن لا يصلح لهذا العمل الا هذا الابن , خرج من المعمعة سريعا , باء بخسران عظيم , عاج على (فوالة البلد) , عصافير بطنه تعزف مقطوعة (يا مسهرني) , سارع قبل أن يستخفها الطرب وتبدأ العزف لشعبان عبد الرحيم (الشماتة دي مش من طبعي), تلك أغنية تمزق الأحشاء بالسواطير , طلب فولا وشايا , جاءه أقل مما طلب , لم يكن من الفول الا اسمه ومن الشاي الا لونه , فالتفت اليَ وقال : (بالله عليك هذا فول .... هذا شاي) ؟

قلت له : لا تورطني معاك يالحبيب , انا راوي قصة فقط , لا ناقة ولا جمل لي في هذا الشأن .

كان سيمضي الى منزله في أطراف البلدة , حيث يتكوم البشر دونما أي اهتمام , نظرت اليه من الشرفة العليا للرواية , همست ممكن أن لا أصحبك في هذا المشوار , ضحك (صعلوك الزمن الرديء) , قال : اذن لن يكون هناك حكاية أو رواية , إما أن تنقل القصة كما وردت وتفرد وصفا وافيا للمكان والزمان أو تغلق هذا الملف , تضعه في سلة المهملات كما تموت كثير من الأمنيات .

مضى في شوارع وأزقة ضيقة , واضفت من شارع الىشارع ومن زنقة الى زنقة , نظر باحتقار قال : لا تكن سخيفا , لم يبق أحد في هذه الأرض لم يتفوه بهذه الجملة , حتى أنها لم تعد تضحك الا السذّج , قريته تبعد عن المدينة خمسين كيلو مترا أو يزيد , متأبطا ملفه الأخضر , دلف الى منزله (أنا في حيرة شديدة من تسمية هذه الخرابة بمنزل بل هي أقرب الى عش دجاج نتن) , كان منزله مبنيا من بلك في السبعينيات حيث توجد شقوق تبيض بها بعض الزواحف المتسلقة , تعرف بالبرص غالبا تخرج في الصيف لتصطاد الذباب , ترسل ألحانها البريئة على رؤوس ساكنيه ,سقفه من خشب وفرشه حصير , لا أقول أكل عليه الدهر وشرب , لكن أكل عليه وشرب ونام وقاء ورقص وأخرج غازات سامة , أضمرت في نفسي أن أغيرها في المسودة النهائية للقصة الى عشته , كي لا أجرح مشاعر

البطل , أبقيت على كلمة منزله , كانت والدته المسنة تتوكأ على عصا , تتدثر بكامل ملابسها كما يفعل كبار السن في الشتاء وغير الشتاء , تحمل على جبينها المغضّن تساؤلات بين الأمل والخيبة , تسأله عن نتيجة تقديمه على الوظيفة , رمى الملفعلى فراش مهمل في مقدمة البيت , قال كلمة واحدة : ماش , أظنها تعني لا شيء , مكوما جسده على الحائط , بدأ بسب كل الاشياء وبعض الشخصيات المشهورة في بلد الضعوي , كعادة كل العاطلين عن العمل حين تقفل بأوجههم سبل العيش , رفعت الأم كفيها الى السماء : حسبنا الله ونعم الوكيل , لم تكن الأم لتراني (أنا راوي القصة) والا ستكون كل القصص انتهت بمجرد اكتشاف الراوي , على ذلك لن يكون هناك نجيب محفوظ ولا سومرست موم ولا تشارلز ديكنز , لن يكون هناك بؤساء يحكي عنهم فيكتور هيجو, لن تتعرى أحلام مستغانمي , لن يموء عبده خال بشرر أو ضرر, اصابني اليأس فما رأيته حتى اللحظة قصة لا تحرك ساكنا , في بلد الضعوي والذيب يعوي نصف سكان البلد هم عاطلون عن العمل , نصف يقتعون أنفسهم أنهم يعملون, فيما يعرف بالبطالة المقنعة , بعض السارقين , كثير من الشحاذين , يعني ليس بالأمر المثير , خاطبت صعلوك الزمن الرديء : اعذرني يا صديقي , قصتك ليست مثيرة , فقال : طيب ... لو اقتل أمّي , كي أظفر براتب الضمان , فقلت : لن تستفيد شيئا , سينقطع راتب الضمان وسيزج بك في السجن حيث تقضي سنين قبل أن يحكم عليك بالقصاص , فيما كنت أناقش الصعلوك بالحبكة خرجت فتاة ضئيلة الحجم كأنها معزاة , عيناها مغمصتان , رائحة سوس معفن تنتشر من ملابسها الخرقة , فتاة لا تملك أي مسحة من الجمال , تلألأت فكرة في رأسي , نظرت اليه نظرة لولبية , فصرخ : لا ... احترم نفسك , فقلت : يخرب بيت فهمك , يعني صعلوك وغبي , يابني أنا أقصد عمل شريف , طقاقة , شغالة , فنانة , هذه أحلام فاتحه اوكازيون على القبح في الأم بي سي في عرب أيدول , رفض رفضا قاطعا : لا , لا نحن عرب أقحاح نأكل رزقنا بعرق الجبين أو نموت فقراء . مع أني كنت سأقترح عليه أن تعمل في خدمة المنازل في جمهورية الموز المجاورة . بناء على هذا الأساس كنت سأهمل البنت أو أدبر لها مرض قاتل وتموت في القصة , نظر لي بتوسل: أرجوك , على الأقل هي تغسل ملابسي , تكوي شماغي الوحيد , تؤنس وحدة أمي المسنّة , وتقوم على رعايتها .

بحثت في جوانب حياته لعل هناك قصة حب لبنت الجيران , أكد لي أن جاراته عجائز ينتظرن زيارات أبنائهن الموظفين أو بناتهن المتزوجات أو الموت , يقمن بين الحين والآخر باستئجار ددسن أبي مساعد ليقلهن الى المدينة ليصرفن الشون

(الضمان الاجتماعي) أو يشترين ما يلزمهن من تموينات غذائية وخلافه , أصابتني حيرة وارتباك فلا يعقل أن أختم القصة بهذه الحال المأساوية , بعد اجتماع قصير مع نفسي التواقة , قررت أن أعود في يوم آخر لمتابعة قصة صعلوك الزمن الرديء , كانت معركة فض الاشتباك بين أمعائي والحموضة محتدمة , فاشتريت حليبا مبسترا طويل الأجل من البقالة الوحيدة التي تقع على الطريق المفضي الى المدينة , وقت المخمخة أزف , فذهبت الى مقهى (عندما يأتي المساء) لأطلب نارجيلة , في رواية شيشة , وبراد شاي , في رواية ابريق شاي , كان النهار ينصرم والشمس تلملم اشعتها , الليل سيأتي , لو لم أكن أنا الراوي لكان المساء قد جاء وحلت جيوش الظلام وخرج العفاريت يتنزهون , لأني المؤلف أرجعت عقارب الساعة الى الوراء ثلاث ساعات , هكذا بقي عن الغروب وقت كاف , لأهرب من العفاريت ومن اللصوص وقطاعي الطرق , فبلدة الصعلوك تشتهر بسرقة المسافرين , حقيقة الأمر ليست بلدة صاحبي صعلوك الزمن الرديء فقط من تشتهر بقطع الطريق ونهب المسافرين , فمدن كثيرة وقرى تنشط بها مهنة السرقة .

هذا ... يحدث في كل الأزمان , في كل البلدان العربية (للأمانة التاريخية) , أما أنا (راوي القصة) موظف صغير في هيئة رقابة نشر الكتب المترجمة من اللغات الحية الى اللغة العربية , بودي أن أعود الى منزلي , وزوجتي (بروك شيلدز) , كل الحقائق استطيع تغييرها الا هذا الواقع المر والأليم في هذه القصة , علي أن أفترض أنها هكذا , فحين تكون هناك زوجة متنمرة , تزحم البيت بكوم من الأبناء والبنات وتناضل أنت بشراسة من أجل توفير الحد الأدنى من المستلزمات , فلابد من اختراع واقع آخر , وزوجة أخرى كبروكشيلدز , أما بلد (الضعوي والذيب يعوي) فهي جنة الله في أرضه , من أنهار جاريات وغابات مطيرة وطبيعة خلابة , ترى بعر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل , فلا يجوع بها الإنسان الا اذا كان عديم الحيلة , لو خرج الى البرية لاصطاد من الأرانب ومن الظباء ومن الطير ما يشتهي , لو عرج على المزارع لقطف من الثمار ومن الفواكه مايغنيه عن منة الآخرين , أرض مفتوحة لا توجد بها أسوار أو شبوك , مفتوحة كالسماء الجميلة الملبدة بالغيوم والتي تنثر سحبها في كل الأنحاء , فتكتسي الأرض باللون الأخضر الجميل , نستطيع أن نعرف سبب تسمية هذا البلد التاريخي بالضعوي والذيب يعوي , فالضعوي هي شجيرة صغيرة تنتشر في أرجاء البلد والذيب يعوي هو رمز لكل مواطن يعلقه على صدره من مولده حتى يدفن في الثرى , بعد أن

أنهيت واجبي في المخمخة استدعيت البنغالي عامل القهوة ونفحته دريهمات أجرا لما استهلكته من دخان ومن شاي , فتحت صفحة النكد لعودتي الى المنزل .

عدت الى صعلوك الزمن الردئ في اليوم التالي , كان يحمل جالونا من الكاز, يمشي مستعجلا , تلثم بشماغه حتى لا يبين منه الا عيناه , استغربت لأمره , يبدو جادا , يركب سيارته الهايلوكس القديمة , يضرب موعدا مع التاريخ , انتظرت , أتساءل أين سيمضي هذا الصعلوك , ماذا يحمل في عقله الصغير من تفاهات ؟

تابعت طريقه , قررت ألا أظهر له الا في الوقت المناسب كعادة الروائيين الكبار, مضت الهايلوكس تقطع الطريق , دخلت في زحمة الطرقات التي تخنق المدينة , أوقف سيارته في شارع رئيسي أمام مكتب العمل , انزل الجالون , بدأ يعد لأمر خطير , صبّ على ثيابه من جالون الكاز سريع الاشتعال , حتى تشبعت ثيابه , كان يهم بإخراج ولاعته , حين استوقفته : وين .. وين يا بو الشباب ؟

نظر لي , بيأس : خلاص يا مؤلف , قررت أن أنتحر , عليّ وعلى أعدائي , الذين حرموني فرصة الحياة , مدير التوظيف ووزير العمل , وغيرهم من النمور المتوحشة , قلت : والله لو تحرق نفسك مائة مرة , لما علم عنك وزير العمل , الآن هو يتصفح الجرائد ويتناول الكابتشينو , لن يرف له جفن , لو كان هذا الأسلوب ناجعا ويؤدي الى نتيجة ملموسة لنظروا في ذلك الذي تردى من على الكوبري , أو بذلك الذي أطلق على نفسه عشر طلقات في الرأس , أو بمن أحرق نفسه حيّا في بيته , وقد لا يعلم عنك أي أحد , يمكن يكتب عنك (كلب وراح) , ألا تثق بي , أنا المؤلف , انظر ماذا سيكتب عنك في اليوم التالي , (شاب يعاني من اضطرابات نفسية يشعل النار في ملابسه , امام مبنى مكتب العمل) , انظر ماذا سيقول الصحفي في جريدة الجزيرة الخالية (الجزيرة الخالية تدخل منزل منتحر العمل , والدته تؤكد تعاطي ابنها لحبوب ال دي اس .. يعني الهلوسة) , (المنتحر يعمل جاسوسا لدولة أجنبية حرق نفسه , لتشويه سمعة الضعوي بين الأمم) , في عنوان فرعي آخر (اخته تشير الى محاولته التعدي عليها) , سيصدر شيخ ما في مكان ما , المنتحر سيخلد في النار مهانا , سوف يساء فهمك لن تصل رسالتك النبيلة , سينظر إليك كمعتوهينوي حرق مبنى مكتب العمل , وأن هذا عمل ارهابي وما الى ذلك , فجع (صعلوك الزمن الردئ) باستنتاجاتي , اسقط في يده , نظر منكسرا , ترقرقت دموعه في عينيه , قال : ماذا أعمل , لقد ضاقت علي الأرض بما رحبت .

بحثت في شهاداته , لم يكن يحمل الكثير من المعارف , فهو لم يكمل الثانوية , يمكن أن أجد له مخرجا : هل تجيد اللغة الانجليزية , هل تجيد الحاسب الآلي ؟ هز رأسه نافيا , هل تجيد الشعر النبطي المهايطي (المبالغ في الفخر) , يمكن أتدبر لك وظيفة خوي (مرافق شرفي) مع أحد المدراء , أو أحد التجار الواصلين , أو أحد سفراء الدول الأجنبية التي تقدس الشعر , بدأ مترددا , أخرج دفترا صغيرا ممزقا , قرأ شيئا يبدو انه شعر , جاملته , حركت رأسي طربا , فلا يجب على الراوي أن يتجرد كلية من مشاعره الانسانية , كان يمر بحالة نفسية سيئة بعد محاولته الانتحار , أمرته أن يعود بجالون الكاز , يستخدمه في تدفئة بيته الآجر البارد الكئيب , فغدا يوم آخر , ودعته عند أطراف المدينة وأنا أعتذر عن مرافقته لبعد بلدته عن سكني , وعدته خيرا في مستقبل الأيام , تطوف على رأسي عناوين بعض المسلسلات التركية كنمط (تزهر الورود) أو (الماضي يبتسم) أو (لقاء تحت السحاب) , مادمت اقتربت من تخوم الرومانسية , فسوف اذهب الى بيتي وأنال قسطا من الراحة بعد المجهود الكبير الذي بذلته في مقاومة انتحار (صعلوك الزمن الردئ) , أين سيكون ذلك في عش الزوجية الجميل بالطبع , زوجتي (بروك شيلدز) تقوم على أسباب راحتي , تهش على رأسي بريش النعام الفاخر , حين يصل المؤلف الى هذا الجزء من الرواية فهو يقع تحت طائلة تزوير التاريخ والواقع والحقائق , فمن يوم خرجت هذه المرأة (لميس التركية) وهناك خلل أصاب مفهوم المرأة في عقلي , أصابني عزوف عن الجنس الآخر , راجعت أوراقي القديمة عن شعر الحب والغزل , هل يعقل أن يتعرض عقلي الى هذا الانتهاك في مفهوم المرأة , أن يمارس كل هذا الخداع والمكر عليّ , أن يتم قولبة عقولنا على (تعلق قلبي طفلةٌ عربية تنعّم بالديباج والحلي والحلل) , إذا هذه النساء في تركيا , ماذا يمكن لنا أن نسميهن ؟ , أو هذه حالة خاصة بالمؤلف , لأنه يؤمن بذوق خالته (رحمها الله) .

دخلت المنزل , هناك معركة حامية بين الأبناء , كتب الرياضيات والفيزياء والأدب العربي تتطاير في كل ناحية , صراخ وزعيق مراهقين يوشكون أن يعبروا الى الرجولة , في هذا البلد لو أحسن ابنائي استخدام الكتب في غير العراك , لخرج من بين ظهرانيهم مهندسون وأطباء بارعون , كانت تتنحى جانبا , , تمسك الهاتف وتتحدث , فهي تصرف على الحديث جل وقتها , تتذمر حين تراني , ترسم حول شفاهها سمفونية الحرب لبيتهوفن , سيدة الحسن والجمال , ألا تشاهدين بأم عينيك , هذه المعارك الطاحنة , هزت كتفيها لا مبالية , أكملت حديثها المهم الذي سيقلب العالم رأسا على عقب , نظرت الى السقف , وهمست

لنفسي (يالله ... الميت لا تجوز عليه الا الرحمة) , كمية هائلة من اللعنات تجوش في صدري , استعذت من الشيطان الرجيم , فقد نبئت بأن الشيطان ينشط في المنازل حين العودة من العمل في بلد الضعوي ساعة الذروة للأعصاب المشدودة , استغفرت ربي من كل ذنب عظيم , مضيت بمهمة ترميم الحال المتردي بين الأبناء المتناحرين , تقمصت شخصية بان كي مون , ضحكت عليهم بكلمات قرأتها لحكيم غابر بأن العصي اذا اجتمعن يأبين تكسرا وأخاك أخاك إن من لا أخا له كساع الى الهيجاء بدون سلاح , , كلام من هذا القبيل , مضيت الى مكتبي حيث , يتمدد كتاب ضخم مترجم عن اللغة الروسية , يطلب له فسح في وزارة الإعلام , لم أكن في حاجة لكتابة تقريري عن الكتاب الذي يتحدث عن الثورة الشيوعية على القياصرة , سجلت في ذيل المذكرة , لا ينصح بنشر هذا الكتاب لما يسببه من زعزعة لمفاهيم الأمن والأمان في بلد الضعوي , عقبت بأن المشاهد يرى الآن ما يدور في هذا البلد من فقر وعوز اضطر النساء الى كراء أجسادهن وامتهان كرامتهن , ابتسمت في سري , أتخيل مديري القذر الجاهل , يثني على جهدي , رغم أني لم أكمل قراءة هذا المؤلّف الضخم , هكذا يرغب المدير القذر , واذا رغب شيئا تصبح الرغبات أوامر رسمية .

استيقظت من كوابيس نومي , طاردني الموتى في كل زوايا الأحلام التي هربت اليها , السرير هو المكان الوحيد الذي الجأ إليه من ضنك المعيشة والنكد الزوجي الذي لا ينتهي , قرأت المعوذات وآية الكرسي , مع تلك الاحتياطات, فقد حضر الموتى ليقرعوا الطبول عند رأسي , شاهدت أقربائي واصدقائي الراحلين من سنين , خالي الذي مات العام الماضي , الزعيم معمر القذافي ,تلك نذر شؤم بالنسبة اليّ , حدّثت نصفي الآخر عن تلك الأحلام لعلها تبث الطمأنينة في صدري , وتزيل كمية الحزن التي هطلت على رأسي من السماء , لكنها ابتسمت وقالت : لعلها النهاية , لا تنس تخبرنا عن رقم بطاقة الصراف السري , لنتمكن من صرف راتبك التقاعدي ... , لا تنس إحضار خضراوات ودجاج ورز فالثلاجة توشك أن تبكي من الجوع .

تمنيت أن أملك آلة الزمن لأعيد تصحيح بعض قراراتي الخاطئة , للأسف لا أستطيع التحكم الا بزمن أبطالي الورقيين , وبعض الأحداث التافهة كتقديم يوم الإجازة يوما واحدا أو تأخير غروب الشمس سويعات , يا لضياع الفتى الأريب الأديب في بلدة الضعوي , لما لا تكون الضعوي تصحيف للضياع , ضحكت كثيرا ,

حين تذكرت حكاية صديقي البدوي الذي سافر الى لبنان , وفيما كان يعيش قصة حبه الحقيقي مع فتاة من هناك , استأذنته في السفر لأهلها بـــ(الضّيعة) وهي تعني القرية , فقال : والله الضيعة هناك ! وأشار الى بلدته .

بحثت عن وظيفة شاعر خوي لصاحبي (صعلوك الزمن الردئ) , وجدت كل المدراء والتجار وأصحاب الحل والربط لديهم جوقتهم الخاصة من المطبلين ومن لاعقي الجزم , لكن في مجلس المدير (ابن ماء السماء) وكان مديرا صغيرا , وُلد وملاعق الذهب تتقاتل لتصل الى فمه الكريم , وتحظى بشرف الوصول , كان يبحث عن أخوياء , يؤازرون مسيرته , يصنعون الكاريزما المطلوبة للعز والجاه والثراء , خرج على مطبليه وخدمه وخيله وصقوره في زينته , لم يتجاوز سن الشباب , صغير وفي معيته رجال مسنّون وبدو وسائسوا خيل من الانجليز , بدأ يتصنع الوقار لمدير من حسب ونسب , فابتدر اليه المنافقون والمطبلون والمهايطون , هناك من يقبل كتفه ومن يتمسح به ككلب داجن في لوس انجلوس صاحبه يعود من العمل , وينتظر وجبته , نهض شاعر كبير يتوكأ على السبعين أو ما يقاربها , جهد أن يصبغ لحيته , لا يخفى شيب مثله عن مثلي , انعكاس الشمس يفضح لحيته , طلب الإذن من المدير الصغير في أن يقول قصيدة شعرية , أذن المدير الصغير بذلك بإشارة من اصبعه المذهب , فقال كلاما وكذبا كثيرا , عن سيف المدير , شجاعته التي قهرت الأعداء , كيف أصبحت الليالي تخشى من صولة الأسد , عن كرمه الحاتمي , وأن النساء لم تستطع إنجاب مثله , لهذاالسبب سوق منع حبوب الحمل بدأ رائجا في الضعوي , أن من يرغب فتى نجيبا مثل هذا المدير بالذات , فليستنسخ من جيناته النادرة المحفوظة لدى بنوك الطب في أرقى مستشفيات العالم , الأرض تعرف وطأته حين تلمسها نعله الكريمة, كذب وكذب , وبقية الجوقة يصفقون ويستحسنون ما قال , وحين أكمل هذره , أشار المدير الصغير الى أحد الحجاب , رمى له بكومة مربوطة من الدراهم , أخذها وهو يمسح شدقيه من زبد الكلام , ويبتسم , أما أنا (الراوي) كاد أن يغمى عليّ , لعبت الحموضة الأدوار النهائية على كبدي , تقززت من هذا المسن الكاذب , قلت : لا نجوت إن نجا ورب الكعبة , لن يصحبني في روايتي مثل هذا الأفاك اللئيم , نظرت اليه , صوبت عليه جلطة قلبية سريعة , دخل لسانه الى القلب , سقط على الأرض , يتشبث بصرة الدراهم , أصابعه تطبق عليها بإحكام عجيب , قفز المدير الصغير وجوقته لينظروا ماذا حدث لهذا الكلب , فوجدوه قد ابتلعلسانه ومات مسموما ...

الفصل الثاني / الملف الأخضر مفتاح الصبر

(اذا أردت لبيضك أن يفقس , اجلس عليه بنفسك)

لم يكن ضميري ليؤرقني في قتل ذلك المسن الكاذب , الحقيقة التي لا نعترف بها , نحن نعاني في بلد الضعوي من أكبركمية نفاق يمكن لها أن تتواجد على سطح الأرض , لو قمنا بتصديره الى الخارج لأصبحنا من أغنى الدول , بل إن النفاق ليختلط مع الدم , تقوم الأمهات بإعطائه لأطفالهن مع الحليب , حين يكون الحليب معلبا , يكفي أن يتم تعريضه الى القنوات TVالرسمية أو تمرير الصحف عليه , قمتبقتلهذا الشاعر المنافق بدم بارد , سفكت دمه , نقص عدد المنافقين واحدا في بلد الضعوي , آن للعصافير أن تمد أجنحتها ,هكذا بجرة قلم قضيت عليه , لا يكفي , فلا زال لدينا منهم الكثير والكثير , أيضا وهذا سبب آخر , لأوجد لصديقي صعلوك الزمن الردئ وظيفة حالت بينه وبينها الحيل والأعاصير الداكنات المجلجلات بكل خزي , الوظيفة ليست بقدر المؤهلات إنما بمعرفة زعيط ومعيط ونطاط الحيط من البشر , لم يكن هناك وقت كاف , حتى لا يقفز على وظيفة الشاعر أي متسلق شحاذ آخر , أحضرت ملف صديقي الصعلوك , سابقت الريح لأقذف به على مكتب رئيس الأخوياء وأنا ألهث , رئيس الخويا رجل بدوي لا يقرأ ولا يكتب , يستخدم الحصى (الحجارة الصغيرة) في عد حاشية المدير الصغير , ونفس الحصى في عد الخيول , والصقور , والسلق (أنواع مميزة من كلاب الصيد) , الحصيلة يجب أن تكون متساوية في نهاية اليوم , ثم يقوم الى صندوق حديدي عليه أقفال ثقال , فيضع الحصى في الصندوق , يحكم القفل مرتين وثلاث ,يذهب بعدئذٍ لينام في بيوت الشعر والخيام المخصصة للأخوياء وغير بعيد اصطبل الخيول , والغرف الجاهزة لكتيبة السلوقيات المدربة على الصيد وأقفاص فاخرة للصقور , يقوم العديد من الرجال الشجعان المزودين بالبنادق , بحراسة هذه الطيور والحيوانات , مثلهم لحراسة قصر المدير الصغير ونسائه ومحظياته , كان رئيس الخوياء ينام بعين ويفتح أخرى فهو يقظان نائم , تخاله جناً وإن لم يتسربل , يعود في منتصف الليل ليتفقد الحصى فيعده , من ثم يعيده الى الصندوق , قبل أن يزأر بُعيد صلاة الفجر كلبوة فقدت أنيابها , لينبه الحاشية والخيول والصقور والكلاب , بأن اليوم قد بدأ , الصباح ينسج أشعته بيد رئيس الخويا , يتمتم بصوت مجروش أصبحنا وأصبح الملك لله , ثم يتسابق على خدمته اثنان من

جماعته , أحدهما يصب الماء على يديه , آخر يقوم بإشعال النار وتهيئة الدلة والشاي يسمونها (المعاميل) في ضواحي الضعوي وباديتها . يرفع رئيس الخويا عقيرته (يا كليب شب النار , يا كليب شبّه , شبّه والحطب لك يجابي) تلك كانت أذكار الصباح لرئيس الخويا التي اعتاد ترديدها دون أن يمل أو يمل تابعيه من جوقة الخويا الأوباش , حالما يشرب الفنجان الأول , فإن باب الجحيم قد فتح , إذ أن الكلاب تنبح معلنة وجودها , الصقور تخفق بأجنحتها , لتقول إنها حية , الحاشية يستيقظون وينفضون النوم من أجفانهم , الخيول تصهل تبحث عن جراية اليوم , بطريقته المميزة يبدأ رئيس الخوياء يتفقد رعيته من البشر والطيور والحيوانات , منتظرا تلبية رغبات المدير الصغير , فقد يأمر برحلة خلوية , قد ينهض وهو يرغب أن يلعب شد الحبل مع رعيته التي غالبا ما ينتصر بها , أو يتسابق مع كلابه وأيضا يسبقها , حتى السلق في الضعوي تعرف النفاق , قد يسرج طائراته الى بلد بعيد , مدير صغير متقلب المزاج , لا يعرف جدول اليوم وقائمة الأعمال الا هو , لن يتحدد مصير اليوم الا بكلمات من فمه ,لذا كان رئيس الخوياء وهو خوي قديم مع والده المدير الأكبر , يقف متأهبا بعصاه , يصرخ على ذاك الخوي أو ينهر تلك الفرس أو يضرب تلك السلقة (مؤنث السلق) , لولا أن يديّ ملطختان بالدماء من الشاعر الكذوب , لأكملت برئيس الخوياء فهو أشد تسلطا من دكتاتور , أكثر غرورا من بعرور(تصغير بعير) , رميت الملف بوجهه , قلت : ياريس الخوياء , نريد وظيفة لهذا الشاب , لمّحت له بأن العاقل من اتعظ بغيره , استوعب العبرة من مصائر القوم الغابرين , لم يرضخ لتهديدي , إنما صرخ بوجهي قائلا , وقد بدأ عقاله يتمايل غضبا : أنت كل , ما حدثت مواجهة بينك وبين زوجتك , جئت تتهدد وتتوعد , إذا لم يكن لديه المؤهلات الكافية فلن يتم توظيفه , حتى لو كان في ذلك هلاكي , أضاف : ولا يقطع الرأس الا الذي ركّبه , أردف : مشيناها خطىً كتبت علينا , لا يهمنا تهديد أو غدر عملاء ,,, فوجئت بردة فعله , لو رمت هلاكه فلربما قام عفريته بإكمال دوره , قلت : يا طويل العمر , هذا ولد يتيم , أمه عجوز , أخته تعاني من تخلف عقلي , وهو ميسور الحال (ضعيف الحال / بلغة البادية) , نرغب برّك وعطفك , من يفعل الخير لا يعدم جوازيه , لا يذهب العُرف بين الله والناس , تهللت أساريره , اشرت الى أفعاله الغر الميامين , أياديه البيضاء على القاصي والداني , فخرجت ضحكة هاربة بين أسنانه المصفرة , لها فحيح كأفعى تتأهب للانقضاض , صرخ بصوت عالٍ: يا نقيدان (أحد أتباعه) , خذ الملف , هذا واقرأ عليّ , قرأ التابع بصعوبة فهو لم يكمل الابتدائية (صعلوك البراري والبحار , متملق من الدرجة

الأولى , يجيد النباح , يمسح الجزم , يحترف تقبيل الأيدي والأكتاف, حاسة شمه قوية , ظهره مهيأ للإمتطاء) , لم يقتنع رئيس الخوياء بالسي في cv لموكلي ,فاجأني بسؤال : هل يجيد اللغة الفرنسية ؟ , هززت رأسي نافيا , قال : لا ينفعنا , هنا غضبت , أضحت السماء بنظري خرم إبرة قلت : الآن يا ملعون , كل البدو الذين جمعتهم حاصلين على شهادة السوربون والله اذا لم يتم توظيفه , لأمسح بك البلاط أنت ونقيدان , كأنكما هباء لم يكن موجودا , واخترت له وظيفة رئيس خوياء في جزر واق الواق , ولأجعلن زوجاتك الأربع يندبن ليلهن ونهارهن , وشرّدت أبناءك العشرة , سأجعلهم يتسولون عند مفترق الطرقات , اكفهر وجهه بدأ ينتفض رعبا وخوفا , هناك نوعية من البشر لا يرعوي الا باحمرار العين , قال : خلاص , خله يمرنا بعد اسبوع .

كنت مستثارًا , فرحاً , لم أنتظر الاسبوع التي وعدنا رئيس الأخوياء , حركت سيارتي الاولدزومبيل باتجاه البلدة لأقطف البشرى من صديقي صعلوك الزمن الردئ في يومٍ تلبدت سماؤه بالغيوم , من الأيام التي ترفع بها الرايات , يخرج الناس من قبورهم (عفوا بيوتهم) ليحظوا بفرصة نادرة , لا تتكرر كثيرا لاستنشاق الهواء النقي , في المساحة البسيطة التي تكون بقرب الطرق الرئيسية , كانت اللافتات والحواجز والأسوار تشير بأن هذه أملاك خاصة لفلان , هذه للمدير علان , تلك لمن لا نعرف من البشر , كانت الطيور تأخذ تصريحها بالعبور فوق أملاك واقطاعيات علية القوم فلها يوم ولا يوم لنا , تطير البائسات ولا نطير , هذه سنة الحياة وأرزاق كفلها الرزّاق (الراوي يعود لوعيه , يستذكر الباب الأول في النفاق والمداهنة , صون الأموال والأرواح والأعراض في زمن يصبح المرء خائفا ويمسي خائفا) , بما أن سيارتي قديمة من عهد هنري كيسنجر الشهم , كانت مسّاحاتها (أداة على الزجاج تستخدم أثناء الأمطار لحجب الرؤية في الطريق) معطلة في سيارتي الأولدزومبيل القديمة , أطلقت لقدمي العنان لتفعل الأفاعيل على دواسة البنزين (... بتاع برضه) لأصل الى منزل صديقي قبل المطر , قبل اليأس , قبل الطير المهاجرة , قبل أن يرتد النظر خاسئا حسيرا...

لم أترجل من السيارة الا وميازيب , شلالات من السماء تنهمر بالمطر, اشتدت الريح تسوق الأمطار الى بلاد الكفرة والملحدين بعيدا هناك الى الشمال , بقي لنا البرد والزمهرير الذي تصطك منه الاسنان , تلثمت بشماغي المبلل , ارتقيت حائط البيت الخارجي , كانت جلبة واستنفار من العجوز وابنتها وابنها , ينقلون أواني

يضعونها هنا , وهناك , استغربت من عملهم , اقتربت , اقتربت أكثر وأكثر , سقف البيت يخر من المطر , يكاد يتلف الفرش والحصير الذي أكل وشرب وتمدد ولعب عليه الورق (البلوت) الدهر كيفما أراد , العجوز تئن , ابتلت ثيابها بالماء , ترتعش من البرد , البنت البائسة يتطاير شعرها مع الريح (ليس الشعر الغجري المجنون الذي ورد على لسان حليم) , صاحبي البسيط اليتيم الصعلوك يشمر عن ساعديه , استشعر المسئولية في الحفاظ على ما تبقى من أسباب الحياة ذلك البيت الخرب , الذي يوشك أن ينهار , خرجت دمعتان من دموع التماسيح التي وفرتها من السنين الخوالي يوم كان لي قلبعطوف (قبل الزواج بالطبع), خدشت عدساتي الطبية , سقطت دمعتان أخريان على طرف ثوبي حزنا وأسى على هذه الأسرة البسيطة , العجوز المنهكة بحمل الماء وصبه في الحوش , تهيب بولدها وابنتها , هنا يا صنيتان , هناك يا رفعة , لأول مرة أتشرف بمعرفة إسم صديقي (صعلوك الزمن الردئ) اذن هو صنيتان , لمحني في غمرة عمله , لم يلق بالا لوجودي , البيت يوشك على الغرق , الإعياء بلغ مبلغه منهم , انتصف الليل , هدأت العاصفة الممطرة , اجتمعت الأسرة البائسة , قام صنيتان بإحضار كومة من الخشب المبلول , يحاول أن يشعل النار دون أن ينجح في ذلك ,أشرت له : صنيتان , لماذا لا تحضر الكاز الذي في حوض الهايلوكس (أداة الانتحار سابقا) ؟ , نظر لي بامتنان , خرج وهو يرفع ثوبه عن قدميه ليتحاشى الماء والطين الزلق , دلق ما تبقى من الكاز على الخشب , أشعل النار , جلست العجوز تجفف ملابسها , جاءت البنت المعاقة عقليا ,تتمايل , توشك أن تقع في النار , جلسوا يتدفؤون, اغتنمت الفرصة لأزف له البشرى : صنيتان , بعد اسبوع , اذهب الى رئيس الخوياء للمدير الصغير في وسط اقطاعيته الكبيرة هناك , ملفك عندهم , سيوظفونك ان شاء الله .

فرح (صعلوك الزمن الردئ) فرحا شديدا , وحلف عليّ أن (إنزل وتعشّى معنا), اعتذرت له , , لا يمكن أن آكل عشاءكم , بالكاد يكفيكم , طريقي طويل ,همي مقيم , وحشة من الخلان , مطارد في غربة الروح والفكر , قال : أين تذهب في هذا الليل البهيم والبرد الشديد , نم عندنا , ومن أصبح أفلح . قلت : لا تخف سأقدم الساعة الى الأمام وأجعل الصباح مشرقا , أم تناسيت أنني أنا الراوي ؟ , ودعته وأنا أشدد على موعده الاسبوع القادم .

ركبت الأولدزومبيل , حثثتها على النهوض , تعاني من كسل في البطارية منذ فترة طويلة حين يأتي الشتاء , مثل كل الأشياء العتيقة , تظل تحتفظ بأصلها وجودتها التي صنعها الكفرة لتخدمنا , منازل القرية تغرق , الطرقات موحلة العفاريت يتقافزون في بقع الماء, ابتعدت عنهم كي لا يبللني الطين , مضت سيارتي تنهب الطريق , كانت ليلة شاقة , يوم خميس تعطل به الأعمال والمصالح , يؤجل به الغثاء المسمى الدوام (العمل) , مررت على (مقهى حين يأتي المساء) وجدته مغلقا, لا يفتح للزبائن والعاطلين الا في المساء , أتوق الى رأس معسل , وشاي بعد تلك الليلة المطيرة , أكملت طريقي , تذكرت فصول المعاناة التي تستقبلني عند باب البيت , موعد تسديد الإيجار لصاحب المنزل , هو رجل من الجنوب , لا يعرف الا لغة الدراهم , له أيطلا ظبي وساقا نعامة وارخاء سرحان وتقريب تتفل , لسانه دقيق جدا , عيناه كالصقور حدة ومضاء , دفعت نفسي الى أقرب ATM (آلة تخرج الدراهم من حلقها , حين تقرأ على صفحتها طلاسم سحرية) , دفعت في حلقها كرتا ممغنطا أزرقا , فسعلت وكحّت وأخرجت نصف ما أملك لرجل الجنوب , استقطعت مبلغا لأشتري لزوجتي حلوى من النوع الرخيص وحزمة ملوخية , قديما كنت أهاديها بعلب الماكنتوش(quality street) قبل أن يرتفع سعره , أما الآن فلا اشتري الا حلوى البقر , ليت أن ذلك أثمر في عينيها , لكن إن قل مال المرء أو شاب رأسه , فليس له من ودهن نصيب , ,دخلت متسللا على رؤوس أصابعي كي لا يلمحني أبو ظافر (صاحب المنزل) , كادت مهمتي أن تنجح , لكنه اصطادني عند السلالم كعادته , بادرته : أنا فداك يا بو ظافر , أينك فين , يا بن الحلال , لي فترة أبحث عنك , لأعطيك الإيجار , سلمت عليه , تبادلنا النقر بالأنوف مرتين, مسح لحيته , أخرج لسانا كالحية , قال أبو ظافر : والله إني محرج منك يا مؤلف , لكن من الشهر القادم , سأرفع الإيجار الى الفين درهما , حاولت التزلف له , رغم أن ذلك لن يجدي معه نفعا , لماذا يا أبا ظافر , أنا فداك ؟ هز رأسه وقال : والله العمارة ما عاد تجيب همها , لولا الحياء , كنت قلبتها شقق مفروشة , والا أجّرتها على الشركات , لكن المعزّة والخوة الذي بيننا ما نعتني (قيم الوفاء والأصالة تمنعني) , سلب مني نصف محصولي وهو يبتسم ..... فهمت منطق أبي ظافر , منطق كل تجار بني النضير في هذا البلد , وادعته وودعته , الى أن يجيء الشهر القادم يخلق ربي ما

لا تعلمون , دخلت على أمل أن يكون الجميع نائمين في يوم خميس بارد وممل لكنها خرجت وشعرها منكوش وعيناها محمرتان , تصرخ كصراخ الزير سالم المهلهل , حين فقد ذاكرته واغترب في اليمن عشر سنين (وينك غايب يومين), أخرجت الحلوى المغشوشة وحزمة الملوخية , فأخذتها ورمت بها بعيدا , غضبت وحضر شيطان الطلاق متكئا على الباب ينتظر كلمة الخلاص التي ينتظرها منذ عشرين عاما , يغمز بعينيه (قلها .. قلها ولا تتردد , الى متى تصبر على الضيم والنكد) , نظرت الى الغرف التي تمتلئ بالأطفال الأبرياء , فاستعذت من دسائسه وأحابيله حتى صرفته بكل كلفة وجهد جهيد , قلت : لا , ليس صحيحا , هو يوم واحد فقط , أسعى في شفاعة لأحد الأصدقاء , مع يقيني أن هذه الأعذار لن تؤتِ أكلها مع زوجتي, فهي تتمتع بخبرات جيمس بوند في التقصي والتحقيق ,لكني حرصت أن لا أفشي أسرار أبطالي الورقيين لأي مخلوق , ربما يصادفني النجاح وأهرب معهم من هذه العقرباء , استخدمت سحري في المداهنة والتملق , امتدحت جمالها الملائكي , حرصها عليّ وعلى سلامتي , قدرت قلقها , كانت العاصفة تمضي بعيدا ... بعيدا خلف الشيطان الذي صفق كفيه يأسا مني وقال / ما فيك حيلة , خفضت صوتها , أعادت لون عينيها الى اللون الرمادي , عادت شعراتها المنكوشة الى أذنيها , عاد الهدوء النسبي يرفرف , مرهقا كنت , مشوش الذهن , أسعى الى التنازل عن كل شئ من مميزات الشجار التي اكتسبتها عبر السنين , والتي اخرج بها مهزوما في كل مرة مع هذه المَرَة (المرأة) في سبيل النوم , تركتني ومضت وهي تشعر بنشوة الانتصار , دلفت الى سريري , قرأت حرزي عن الموتى , نمت كنوم المهاجر ,,,,,,

الفصل الثالث / نطارد السراب , كي لا يطاردنا.....

(حاول أن تتقمص شخصية الأبطال , لكن لا تبالغ , اذا كانوا أمواتا)

كانت العقبان تحلق في السماء بدوائر لا متناهية ,غيوم سوداء تتراكم فوق بعضها , الشمس تتضاءل خلف العقبان والغيوم الداكنة , حتى اختفت تماما , الظلام يعم كل الأمكنة .

شعرت بكرب شديد , لساني يجف , قواي تخور , الطريق يتهاوى أمامي , قدماي تزلان في الفراغ , أتماسك ولا أستطيع , ركضت محاولا النجاة بنفسي , لم أبتعد كثيرا , لمحتُ أمامي طريق النجاة يمر من باب صغير لا تستطيع الفئران أن تعبر خلاله , لم يكن أمامي الا هذا الباب الصغير , خلفي كانوا , يصرخون , ووقع أقدامهم يقترب , يحملون رماحهم لينشبوها في صدري أو ظهري , أقحمت رأسي في مدخل الباب , وأنا أدعو الله في سري أن لا يروني وقلبي توقف تماما , , فجأة امتدت يدٌ لي من خلال الموج مُدّت لغريق , واذا يد أعرفها وأعهدها ومن بين آلاف الأيدي أميّزها , زوجتي الحنون توقظني , وصرختُ : القراصنة ... القراصنة , أين ذهبوا ؟

ضحكتْ وقالت : القراصنة ينتظرون في الصالة , يريدون أن تقوم بتمشيتهم , (نقلهم على ظهرك لأنحاء من المدينة تبيع الطعام وتقدم الألعاب) , فتحت عيوني , وتنهدت : آه (بروك شيلدز) , أي يوم نحن ؟ أجابت : الخميس , موعد التسوق وتبديد المرتب كيفما اتفق , أكملت : حاضر ... حاضر , طال عمرك(ي) (تمام يا أفندم) , قمت وغسلت وجهي ونفضت يوم الأمس الحافل من ذاكرتي اطفأت الشموع على (صعلوك الزمن الردئ) لينعم بالهدوء , القراصنة يتهيؤون للخروج , منحت ابنتي الصغيرة قبلتي حب وشوق , وهمستُ : ومنْ غيرك يجبرني على هذا العناء ؟ , آه لو تعلم هذه الصغيرة بأن أباها يخطط للهرب من هذا الجحيم , أحيانا لا أرغب بالموت من أجل ابنتي الصغيرة (دراكولا) .

نزلنا من السلالم , وأقبل البنغالي عبد المجيد (أو مجيد) بواب العمارة يحمل فاتورة الكهرباء (ثعابين سامة تدسها الشركة خلسةً في جيب المواطن كل شهر) , وضعها في يدي , مضى هاربا لا يعقب .نظرت الى الرقم الذي تحمله الفاتورة متحسرا , (اللهم اخسف بهم الأرض في يوم عبوسٍ قمطريرا , ارني بهم عجائب قدرتك) , ندّت منها التفاته وقالت : مالك , ما بك ؟ , قلت : هؤلاء اللصوص , نحن في الشتاء وأرقامهم , لا تختلف الا قليلا ... , نظرت نظرة ذات مغزى , تغني عن آلاف الكلمات , تظهر الملل والتبرم والاستعجال , الأبناء يتزاحمون بالسيارة ويكملون معاركهم المستمرة , كل منهم يدافع عن ما يظنه مكانه . يجب أن لا يكون لديك أطفال أكثر من نوافذ سيارتك, وهي تصرخ : متى يا رب , يصير

عندنا سيارة واسعة , بدلا من هذا القفص ؟ , قريبا إن شاء الله , متأملا أن تنهي جملتي في ما يبدو أنه نوع من التذمر والشكوى التي لا تنقطع , التفتت بأعين ضاحكة: لا بد من سيارة واسعة , فسوف يأتينا ضيف جديد بعد خمسة أشهر ,,,, صدمت من كلامها : ليه يا بنت الحلال , البلد ناقصة أفواه وأرانب حتى تساهم(ي) في تخلفنا الاقتصادي , حركت يدها أمام وجهها (هكذا S): البلد ما وقفتْ عليّ (ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان) .

قضى الأطفال وقتا ممتعا , أكلوا من تلك المطاعم التي تضع لافتات أجنبية في بلد الضعوي , وإن كنت أنا (الراوي) قد قضيت وقتا سيئا , وأنا أقبض من الدراهم وأدفعها لكل هذه الحفنة من المحتالين والبائعين ومصاصي الدماء , ومما زاد حنقي على بلد الضعوي التي تزدحم بها الطرقات ويتدافع بها البشر وكأنه يوم الحشر إبان دفع الرواتب , كأنّ هناك واجبا يفرض على النساء أن يبددن تلك المداخيل البسيطة بأسرع ما يمكن , عدنا الى المنزل (الشقة) ورأسي يكاد ينفجر من الصداع والإرهاق يتسلل الى أعضائي , متحاشيا الشجار معها , غافلا عن تلميحاتها , بذلك الفستان وتلك التنورة , فيوم السبت يجب أن أحمل الكتاب الروسي المترجم الى مديري القذر وأعطيه ملاحظاتي حيال السماح أو عدم السماح بنشره .

أكملت المذكرة على قرص CD (شيء دائري لامع يثير الاشتباه وسوء الظن دائما) عن كتاب ليون تروتسكي (الثورة الروسية) , وصفت المترجم بأقذع الألفاظ , كيف غابت عنه عدالة الإسلام ليمتدح الشيوعية الملحدة , كيف أن البلد الذي يحكم بالشريعة الإسلامية لا يوجد به فقراء أو متسولون , بل إن المرء ليصاب بالحيرة , فيمن يعطي أو أين سيجد محتاجين وزدت من كذبي , إن المواطنين في الضعوي , لا يعرفون معنى تسول وفقر , حتى يقرأوا معناها في مختار الصحاح , وأن الـــ ... وكتبت كل ما سمعته عبر الفضاء أو قرأته أو قيل لي عن توزيع الثروات بالعدل , حتى أرضيت ضميري , جعلته يتثاءب طويلا الى أن بدأ يشخر , اطمأننت عليه , سحبت الغطاء واعطيته قبلة النوم .. (تصبح على خير يا ضميري) , ختمت مذكرتي بعدم السماح لهذه الهرطقات بأن تدخل الى الضعوي , آويت الى فراشي متأخرا , أحلم بإعجاب مديري, كيف سيقوم بترشيحي للسفر الى تلك المهرجانات الثقافية التي تقام خارج الضعوي , اذ أني وخلال خدمتي الطويلة لم أحظ الا بزيارات بسيطة الى مهرجانات محلية وبعض

معارض الكتاب , وتلك لا يعطى عليها أي ندب (مبالغ مالية تصرف في سبيل السكن والأكل واشياء أخرى) .

كان مديري القذر (أبو نايف) , رجل ينطبق عليه قول القائل , أتته القذارة تجرر اليه أذيالها , فلم تكن تصلح الا له ولم يكن يصلح الا لها , رجل من وسط بلاد الضعوي , له جذور ممتدة مع مختلف الوزراء في الضعوي , فهذا ابن خالته وذلك ابن عمته وهذا رفيق ما يدوّر بديله (يتخذ عنه بدلا), هكذا دواليك , اذا أشار الى أحد بتهديد , فيكتفي بقول (ولستم بمعجزين) بلهجته المطاطة التي تثير الرعب , فترى القوم مرعوبين وقد يبات المرء ساهرا ليال , ينتظر من يطرق بابه هزيع الليل الأخير , أو أن يطوى قيده (يطرد من عمله مذؤوما) , أو ينقل الى بلد ناء لا تصل اليه الا البغال والحمير في شاهق من الجبال , وعسير من الطرق , تحار الجن في عبوره , يظهر التدين , يكثر من التسبيح والاستغفار , يفتح باب مكتبه ليراه الموظفون والزائرون يؤدي صلاة الضحى , بين السطور , سرت شائعات بين الموظفين عن سهراته الماجنة وخمرياته في البلاد التي يذهب اليها منتدبا , يذهب الى كل البلدان , يرمي بالفتات الى بعض حاشيته في الإدارة كحامد المنافق وغصن المتملق , لديه قدرة تأثير كبيرة على وزير الإعلام , يمكن له أن يغير مسار البلد التي يرافق بها الوزير , فقد يضحك قائلا : (لا ... لا ... مليّنا من المغرب , خل الموتمر(الاجتماع) في باريس ..) , غالبا الوزير ينفذ طلباته بيسر , رغم جهله في مجال النشر والثقافة (حاصل على دبلوم تربية دينية متوسط) , بالكثير سيؤهله أن يصبح معلما في المستوى الابتدائي , لكن صلاته (بكسر الصاد لا فتحها) والأهم ذكاءه ...

صيرته فارسا هماما , لديه قدرة عجيبة على النفاق , وهو أي النفاق من برع فيه فقد حاز المجد والسؤدد والثروات الطائلة في الضعوي , حين يحدث حدث في أي مكان في العالم , لا بد أن يربط بشكل مباشر أو غير مباشر بنعمة الله التي اختص بها بلد الضعوي , فحين حدث زلزال في نيوزيلندا قال : (انظروا الى بعدهم عن الله , ونحمده أن من علينا ... ويكمل ذلك حتى يصل الى ولي الأمر والسلطان) , في الثورات التي قام بها البؤساء ضد الطغاة في العالم العربي , يجد ما ينوه عنه من نعمة الأمن والأمان , في المجاعات يقول ما يقول .... حتى يصل الى الثناء على ولي الأمر والسلطان , كان ينحو بأي موضوع ليجعل أي حديث ينصب في نهاية الأمر بالحمد والثناء على ولي النعمة حتى لو كان حدثا سلبيا , ويوم أن يفشل فريق كرة القدم , يعزو ذلك الى فضل الله , وحكمة

السلطان في منع شباب البلد من التغرب والاختلاط بالكفرة والملحدين , إذا ارتفعت الأسعار ذكّر بالزُهد والسلف الصالح وخطر السمنة والكوليسترول الناتجة من الطعام , وحكمة السلطان , هكذا تجد دائما لديه التبرير الجاهز , الذي يجعلك تحك رأسك مرتين إحداهما بالجزمة (جلد يوضع في الأقدام غالبا) , كان مديري قد ارسل في طلبي , وحملت المذكرة بعد طباعتها , ومهرتها بتوقيعي واسمي بخط بارز لعله ينتبه فينالنا من انتداباته ونفحاته الشئ القليل , قرأ المذكرة , من ثم وضعها على الطاولة , أضاف : جيد , لوى بوزه جهة اليمين , أضاف : لكن المترجم هذا يهمنا أمره , لا نرغب بقطع رزقه , حاول أن تكتب المذكرة وتستبدل الكلمات المشبوهة , أو المحرضة أو الملحدة ....

أجبت : سَم .. طال عمرك (بودي أنها بكسر السين لا فتحها , كسر الله أسنانه) , لماذا لا نعيد الكتاب الى المترجم وننبه الى الأفكار والكلمات وهو يغيرها بطريقته ؟ , عبث بأنفه , , نظر جهة الباب , كأنه يقول لي : اخرج : لا .. لا ... لا نرغب بإزعاج المترجم والإثقال عليه . فهمت النظرة , خرجت من عنده وأنا ألعنه في سري ثلاثمائة وخمسا وستين لعنة , كأنني سأقوم بتأليف الكتاب مرة أخرى , لعنت هذه المهنة التي تجعل هذا الحقير رئيسا على البشر , من خلف طاولة المكتب تراءى لي أولادي , يرفعون أيديهم , يريدون طعاما , ابنتي (دراكولا) تمسح عينيها من البرد والجوع , بروك شيلدز وامرأة أخيها تسومها سوء العذاب , وازنت بين الأمور الجيدة والقبيحة , اخترت صراخ الأطفال : لا تتهور يا بابا , نحن بانتظارك .

مضى الاسبوع مملا , رتيبا , بين كآبة المكاتب , تزلف الموظفين , غثاثة المدير , افرازات الحموضة التي أبت الا أن تذكرني بطعم القهوة التي يخلط العامل وسخ يديه مع هيلها وبنّها , بين معارك داحس والغبراء في المنزل , ترقب الحلفاء الذي تقوم به (بروكشيلدز) للهجوم على النورماندي (المؤلف) في أي بادرة , أو تعليق ولو كان بحسن نية , كان صنيتان (صعلوك الزمن الردئ) ينام مطمئنا في الصفحات , حين جاءت (نوارة القلب) و(البسمة البريئة) ابنتي وهي تقول : يبه ... يبه , فيه واحد يبغاك (يريدك)عند الباب , خلاص يابنّيتي , لكن لا تقول(ي) : (يبه) , بابا , بابا , أحسن من (يبه) , (يُبَه) تجعلك مثل القراصنة الآخرين , خرجت الى الباب واذا بصاحبي وهو ينظر أسفل قدميه , صاح : أين , هل نسيت الموعد مع رئيس الخوياء ؟

لا ... لا , لكن اسبقني على السيارة , لبست ملابسي , كانت تتابع مسلسلاتها التركية التي لا تنتهي , أشرت لها : بروك شيلدز , لا تتابعي الأتراك فيزيد إحباطك , تجاهلت كلامي , دون أن تلتفت : أين إن شاء الله ,,, ؟ قلت : صديقي , الذي أخبرتك عنه , وتوسطي له في وظيفة ,,, أردَفتْ : ليتك تتوسط لنفسك من الفقر الذي نتف قلوبنا !

احمد(ي) ربك , ترى نحن أفضل من غيرنا , أغلقتُ الباب خلفي , نزلت من السلالم , صنيتان في سيارته الهايلوكس يضع يديه على المقود , ركبت السيارة , حركها فتدافعت مشي القطاة الى الغدير , مضت تخب الشوارع , تدخل غمار الطرقات المزدحمة , اهوى بيده الى المسجّل (أداة تنشر الموسيقى والشعر والحكم) واذا فنّان قديم يغني : ليت للقلب موجة وتغيير , التفت اليّ: يمكن , ما يعجبك يا مؤلف ابن سعيد , قلت : كلا , بل هو فناني المفضل , عليه رحمات الله . اهتز طربا لكلامي , بدأ رأسه يتمايل مع الأغنية , سرحت ببصري بعيدا , رأيت القطط تعبر الطرقات المزدحمة , القطط مؤشر خير في هذا البلد , اذا تناقصت فاهرب بجلدك , الدخان يتكوم على سماء المدينة المملة التي لا تعرف الهدوء , اقتربنا من إقطاعية المدير الصغير , استوقفنا حارس غليظ الملامح متجهم الوجه , اخبرته عن موعدنا مع رئيس الخويا , طلب منا الإنتظار , ذهب ليتحدث بالهاتف , نظر تجاهنا , رفع صوته بغلظة : يسأل الرئيس عن هوياتكم , أجبت : قل له , المؤلف , والشاعر . عاد ليفتح الباب الضخم على مصراعيه , دخلنا وكانت اقطاعية مترامية الأطراف , أوشك المساء أن ينشر أشرعته , في البعيد تراءى لنا قصر المدير الصغير والأضواء تحيط به كلؤلؤة في وسط الصحراء , مضت الهايلوكس تتهادى على وقع ابن سعيد (ألا يا لله يا عالم بحالي , تزيل الهم عن قلبي تزيله) , نظرت الى صنيتان ,: لِمَ لا تزيل اللطمة ؟ وكان يتلثم بشماغه , أكملت : لماذا لم تخفف من الشنب أيضا ؟ , ضحك : فعلت ولكنه ينمو بسرعة , أنا أظن أكلي كله يذهب الى هذا الشنب ! , اقتربنا من تخوم القصر المهيب , فاستوقفنا رجلان يحملان السلاح , صوّب أحدهما علينا وهو يتهيأ لإطلاق الرصاص , قفزت من السيارة وجلاً : انتظر , انتظر , اقترب الآخر من صديقي , أمره أن يترجل من السيارة , بعد تحقيق قصير , أمرنا الرجل أن نتجه الى بيوت الشعر على اليسار , حذرنا من الاقتراب من القصر , امتثلنا للأمر بعد أن كنا سنذهب بشربة مية (نموت بشسع نعل رئيس الخوياء) , من السهل بعد ذلك , الحديث عن قتل بعض المتسللين , لكن رحمة ربك تداركت عبيده , كانت المنطقة تكاد تغرق في الظلام , بصيص ضوء يبدو من بعيد , اقتربنا من أحد الخيام التي

يتجمع بها الخويا في غفلة من الزمن , يتبادلون القهوة وأكواب الشاي بلا نهاية , رحّب بنا أحدهم وتبينت وجهه فإذا هو (نقيدان) المتعلم الوحيد في طغمة البدو هذه , رحّب بنا مرة أخرى , وهو يشير لنا (اقلطوا ... اقلطوا , يا مرحبا) دخلنا الى الخيمة , حزمة من حطب السمر تتوهج في كانون وعلى جانبيه برادات الشاي (أباريق الشاي) ودلال القهوة , جلسنا , سرى الدفء في أوصالنا , هدأت نفوسنا بعد أن كاد ذلك الأبله يرمينا بالرصاص الحي , نهض شاب في مقتبل الحياة , قدم القهوة لي ولصنيتان اشرت بيدي بمرارة : معذرة , اعاني من الحموضة والقولون ومصائب سوداء , نظر نقيدان اليّ بعتب: أفا (كلمة تأسف وتحسف) , ترى هذه بحق يا مؤلف , لأنني اخشى من هذه الكلمة عند الأعراب فقد تجرعت القهوة التي طبخت بالنار حتى اسودّت , وقلت : يا نقيدان , أنت تعرف (صنيتان) يريد خوّة المدير الصغير , رئيس الخويا عنده طرف الموضوع , رد : نعم , نعم , لا تشغل بالك (قر عينا) , سوف يحضر رئيس الخويا بعد قليل , نظر نقيدان الى (صعلوك الزمن الردئ) يتفحصه , كأنه احتقره لضآلة جسده , كذلك بقية الخويا الأوباش , اكملت : هذا شاعر , خبير بالقنص والرحلات , مدرب على القيادة في الصحاري , من حمولة طيبة (عائلة عريقة) , جده حمى العشيرة في ايام الجاهلية الأخيرة , خاله من أشهر المهربين في الجزيرة (يتفادى رجال الجمارك) , لم نلبث الا برهة , حتى اقبل رئيس الخويا , يلوّح ُعصاه وما إن دخل , حتى انتفض القوم , كأن لبؤة جائعة دخلت عليهم , سلّمت عليه , وقدّمت رفيقي , أشار له بعدة اسئلة , أجاب عنها صنيتان , طلب منه أن يقول إحدى قصائده , مضى صنيتان يقول شعرا رديئا عليلا , رأيت رئيس الخويا يتبرم , اشار بيده .... أن كفى , قرع قلبي بشدة , نظرت اليه نظرة ذات مغزى , فقال : لا تخف , سنجد له وظيفة إذا لم ينفع كشاعر ,,, ونادى أحد الخويا: احضر له ملابس . قام الرجل وأحضر كومة من الهدوم , بها بالطو أسود , وثوبا , أمسك بها صنيتان بفرح , ينظر لي ويبتسم , أخرج رئيس الخويا ربطة من الدراهم أعطاها صنيتان , يؤكد : الاسبوع القادم , جهّز نفسك , سيكون هناك مقناص للمدير الصغير (رحلة لاصطياد الأرانب وبعض الغزلان المخدرة وأحيانا حباري مستوردة) , استأذنت من رئيس الخويا , الذي أمسك بيدي : اسمروا معانا وتعشوا , اعتذرت له بالعمل والكتاب الروسي المترجم , فهز رأسه دليل الفهم , خرجنا وصاحبي يكاد يقفز من الفرح , عد الدراهم مرة واثنين , أخرج خمسمائة درهم وأعطاني إياها , فحلفت له : أن لا آخذ درهما منه , لو كان المؤلفون والرواة يأخذون من أبطال رواياتهم أموالا , لما كان هناك راويا فقيرا ,

لم اسمع طيلة عملي بهذا المجال عن مؤلف جمع مالا من أبطاله أو شخوصه , اذ أن ذلك في رأيي عمل لا أخلاقي , أصر صنيتان: أنا أعرف ظروفك , فاعتذرت له , شكرته , سألته : ماذا ستصنع بهذا القدر من المال ؟ , قال : سأذهب بأختي الى شيخ يقرأ عليها من المس والجن الذي يتلبسها قلت : وفر نقودك يا صنيتان , اختك متخلفة (معاقة عقليا) بسبب الحصباء الألمانية , جاءت على كبر سن من والدتك , فلا تبذر نقودك فيما لا طائل منه , هز رأسه: أعرف , لكن العجوز تحن عليّه (تكثر من التقريع واللوم) , مضينا خارج الاقطاعية , الظلام يسدل أستاره على المدينة والإقطاعية تختفي خلفنا , خرج العفاريت يتصيدون الأطفال الهاربين من بيوتهم , النساء الناشزات من وكر الزوجية , العمالة التي لا تحمل أوراق الاقامة النظامية , المؤلفين الذين يحيدون عن الصراط المستقيم , نظرت خلفي اليهم وهم يحاولون أن يسرقوا الطرق والشوارع الاسفلتية ويضعونها في حقائب سوداء ضخمة , كان صنيتان يغني مع ابن سعيد , بدأ لي أن النعاس يحاول أن يتآمر على عينيّ , قفزت قهوة الخويا المسمومة الى المرئ , ضحكت الحموضة بصوت عال , تهنئ نفسها على هذا الإنتصار الساحق .

لمحت أضواء مقهى (حين يأتي المساء) , فطلبت من صنيتان أن يقلّني اليه , ثم يمضي لحال سبيله , شعرت أنه يريد أن يذهب لأمه وأخته ليشاركهم فرحة البسطاء بهذا المبلغ , ربما سيشتري عشاء من تلك المطاعم البخارية , كان صنيتان وفيا , أراد أن ينتظرني ليعيدني الى البيت , قلت له : لا تقلق سأجد من يوصلني اذا لم يأت بعض أصحابي الذين غالبا ما يأتون الى المقهى , شكرته ومضت سيارته تزمجر في الطريق , اختلست نظرة الى الساعة , الوقت مبكر , , ليس هناك أي ضرورة للعبث بالزمن وتأخيره , تذكرت صديقي الذي قدمني الى عالم (المعسّل) , دعوت الله عليه بأن تتخطفه الطير أو يهوي الى بئر سحيق , عليه من الله ما يستحق , فقد أهلكت صحتي و أرهقت ميزانيتي , رأس المعسل (رأس غليص بن رمّاح يوضع عليه جمر ملتهب ليكفّر عن خطيئة الغدر) يباع بعشرة دراهم وأحيانا أكثر ,الشاي بأربعة أو خمسة دراهم , في بلد الضعوي حتى تلك الأشياء التي تضر الصحة وتهلك الحرث والنسل تباع بغلاء فاحش , ثم دعوت الله لصديقي بأن تكلؤه عين الله وأن يحفظه من الزلازل والمحن , لأنه لم يورطني في الهيروين أو الحشيش , إنما اقتصر على معسل التفاحتين , دخلت الى المقهى , وصدى موسيقى حزين يأتي من سمّاعات مثبتة على الجدران , وإضاءة خافتة , زبائن من كل الجنسيات ينتشرون في المقهى , طلبت رأس التفاحتين , أوصيت بشيشة نظيفة وماء جديد ولي محترم وفحم قرظ (وصفة للتحليق بلا أجنحة) ,

وشاي بالحليب يستطيع أن يقارع عصارات الحموضة , سحبت نفسا , أرسلته الى الفضاء الفسيح , سحبت آخر , مخاطبا الرأس / كما ينبت العشب من مفاصل صخرة , وُجدنا غريبين يوما , ونبقى رفيقين دوما , وكانت سماء الربيع تؤلف نجما ونجما .....

الفصل الرابع / رجل وثلاث نساء .

(الزواج هي الحرب الوحيدة التي تنام بها مع العدو ...)

كانت سحب الدخان تفصل بيني وبين واقعي الكئيب , ظهر بين السحب أبو ظافر / أنا فداك لا تنسَ الإيجار هذا الشهر.. مديري, هل أعدت صياغة الكتاب ؟ , زوجتي لا تنسَ الدجاج والثلاجة وأمي أحسن من أمك وأبوي أكرم من أبيك وبيتنا أحسن من بيتكم , ابنتي الصغيرة تبتسم كالقمر يطل بين السحب الداكنة , ابتسامتها فقط من يبعث على التفاؤل في زمني الصعب ,صنيتان وأمه واخته المعاقة يتحلقون حول الرز الأحمر والدجاجة شبه المحروقة في سعادة بالغة , رشفت آخر جرعة من الشاي الذي فقد مذاقه , لم يأت الأوغاد الذين اعتدت على مسامرتهم منذ أعوام القحط الأخيرة , نهاية اسبوع كما القطران قطرة .... قطرة , دفعت للعامل لقاء تلك الأشياء التي أدخلتها رئتي وجوفي , وقفت في الطريق الذي بلا نهاية , انتظر أحدا يوصلني الى منزلي , وقفت بقربي سيارة صغيرة , كان شابا في مقتبل عمره , وقال : تريد مشوار (هل أوصلك الى مكان ما) ؟ أشرت له : الى الجحيم لو سمحت يا معلّم (لقب لمن لا تعرف مهنته في الضعوي), قبل أن أفتح الباب , سألت / بـــ كم توصلني ؟ هذه من الأشياء بالغة الأهمية , فقد تفاجأ بسعر آخر لا يتناسب والطريق , وأضاف الشاب / لن نختلف ... , قلت : لا , لا بد من الاتفاق , كنت أعرف أنه سيقبل بأي سعر , فهو غير مرخص له بأن يوصل الآخرين , سيارته خصوصية , قال : ثلاثين درهما , قلت : لا , قال : خلاص , اللي تدفعه , لعنت مكري وخبثي الذي لا يستأسد الا على الضعفاء : خمسة عشر درهما , وافق مجبرا , مضت سيارته تنهب الطريق , كان مطرقا , كئيبا , حدّثت نفسي : ما الذي يجعل شابا في مقتبل العمر في بلاد الضعوي السعيدة بهذا القدر من الحزن ؟ , سلامات ... وهي تعني مواساة ومشاركة , قال : والله يالأخو , انا عاطل لي سنتين . تقمصت وجهة نظر وزير العمل : لماذا لم تكمل دراستك يا بني ؟ , نظر اليّ وتمتم : أنا خريج , علم اجتماع بتقدير امتياز , كمشاركة مني رسمت علامة تعجب بحاجبي , معقولة ؟ استنكار في غير محله , كأني غريب عن هذا البلد وجاحد وما جحد , مضى يشرح معاناته , لمت نفسي على مفاصلته في السعر , حزنت لحال هذا الشاب , لكني تماسكت وأنا استمع لمعاناته في التوظيف , وكيف / في بلد الضعوي هناك ملايين يأتون من خارج البلاد ويجدون من يقوم بتوظيفهم , واسيته بالصبر , لا بد من يوم تفرج به الكرب , للحق تمنيت أني لم اسأله , فقد زاد مقدار الكآبة التي أحملها ضعفين , عندما وصلنا أعطيته عشرين درهما , فأعاد الخمسة ورفضتها , وأبى الا أن يعيدها , كان فتىً أبي النفس , في بيئة لا يعيش بها الا كل من هو دنئ ومجرد من القيم الفاضلة , تركني في ليل همومي ومضى يبحث عن رزقه في ليلة باردة وعديمة المشاعر في تلك المدينة

الكئيبة التي تفترس النفوس , دخلتُ وكانت تغط بنوم عميق , تسللت لاختلس قبلة من ابنتي , شعرت بحاجتي الى ثغرها التي لعبت به السوسة فأصبحت (دراكولا) كما يناديها اخوتها , وقبّلتها فابتسمت وهي نائمة لا تشعر بالأبوة الحقيقية حتى ترزق ببنت .انتبهت (بروك شيلدز) , قالت وهي تغالب النوم : غدا سنذهب الى أمي , انها مريضة , قلت : اخيرا ..... ! , قالت : حرام عليك , أجبت : يا عزيزتي , أمك طوّفت على السبعين , لم نسمع يوما انها مرضت أو اشتكت من علة وأضفت / ما شاء الله عليها , أمك ضد الزمن والمرض , أظنها مقاومة للرصاص والاشعاعات النووية ,,, ولأني خبرت الهزائم مع بروك سابقا , اضفت / طبعا ... امزح , أنا احب (حمامتي) القّبها بذلك بدلا من حماتي , ولو كشفتِ عن قلبي لوجدتها تلعب في أرجائه كما العصفورة في الخمائل , بدأ انها نهاية الجدال , لكنها أضافت / مدرسة وليد يريدونك تمر عليهم .... ماذا يريد هؤلاء البلهاء الذين كرسوا الجهل في بلاد الضعوي ؟

تكومنا في الاولدزومبيل في وصفة الوزن ضد السرعة , مضينا نعبر البنايات الشاهقة والطرق المليئة بالعوائق حتى وصلنا الى بيتهم العامر , الحواجب مقطبة كأنها رماح مسمومة (عدوان صكّت حواجبها) , بعد السلام البارد تقافزت طيور البطريق بيني وبين نسيبي , ناحت ريح الأسكيمو , هجم الصقيع على روحي , مكثت نصف ساعة , رأيت الحمامة تقفز هنا وهناك أنشط من قط في اوائل كانون يناير الثاني , استأذنت من سجن الملل, فقال صهري : الشاي , القهوة , نظرت له : ليس هناك ضرورة , فلو كان هناك شئ لأتى بهذه النصف ساعة التي انصرمت , لم يصر , كان يديم النظر الى ساعته كل ثلاثين ثانية طيلة مكوثي تنهد كأن هناك جبلا وانزاح عن صدره , خرجت من بيتهم لا أعرف أين اذهب في يوم آخر كئيب , رجعت قبل المساء في رحلة العودة لأعيد القبيلة الى مضاربها .

في الصباح الباكر , استأذنت على مديري القذر (أبو نايف) , بعد انتظار , سمح بمقابلتي , فسلّمت , رأيت شفتيه تتحركان , لست متأكدا ما اذا رد السلام , أم لا ... قدمت له الكتاب بعد التعديلات والتي اصبح بموجبها كتاب (الثورة الروسية) (السلطة الروسية) بفتح السين واللام وتشديدها , القى المدير نظرة , طلب سكرتيره وقال : ادع السواق (ابو علي) وابلغه يذهب مع (المؤلف) الى مترجم الكتاب , ويعرض النسخة عليه , لعنة الله عليك(في سري , طبعاً) , قطع الطريق علي لكي لا أذهب لمدرسة وليد وانظر ماذا يريدون ؟

ركبت مع (ابو علي) وهو مسن , يواظب على خدمة المدير في أوقات الدوام الرسمية وغير الرسمية , في الحفلات الرسمية التي يقيمها المدير القذر , يجمع ما يتبقى من الطعام والحلويات ويأخذها لبيته , ويشتهر بأنه ينم (نمّام) , (دبوس) للمدير , (دبوس / يعني مخبر سري يقوم بنقل كل صغيرة وكبيرة الى اذن المدير ويضيف عليها التوابل) يجب الحذر منه سائر الحياة , فهو لا ييأس من الهدف , حين ركبت بجانبه ابدى التذمر والانزعاج من هذا المشوار المتعب , وكأنه يستكشف نواياي , بادرته , امتدحت حكمة المدير وبعد نظره في الذهاب الى المترجم وعرض هذه النسخة عليه , نظر اليّ بعينين ملئتا غدرا وخبثا , حاول أن يجرني الى الحديث في ذات المدير , فقطعت عليه الطريق ومدحته بما عرفته من صفات الصحابة الأخيار , ولو استمر لخلعت عليه صفات الملائكة الأبرار, هذه هي أسلم الطرق للحفاظ على مورد الرزق من هذا الكلب المسن ومن ذلك القذر الجاثم على الكرسي , وصلنا الى قصر ضخم يمتد على خمسة آلاف متر , تحيط به الأشجار الوارفة , فُتحت البوابة , دخلنا ورأينا سيارات فارهة من تلك التي اسعارها تتجاوز مئات الألوف , , امسكت لساني عضضت عليه وهو يتحرق للبربرة (الثرثرة) , نظر (الشايب الشرير) اليّ , وقال : من أين لهم كل هذه الثروات ؟ أبوهم كان حارس مدرسة , فقلت : يرزق من يشاء بغير حساب , قابلنا شاباً أصلعاً الا من شعيرات في مؤخرة رأسه , الصلع يبدو ملازما للعبقرية ,بشرته لامعةكأنه لم ير الشمس منذ سنين , رحّب بنا , دخلنا الى مجلس كبير وفخم , سأل عن المدير , فأجاب أبو علي , عرضت عليه الكتاب , وكان عامل اقبل بصواني الحلى والتمر والقهوة والشاي , جلسنا نشرب ونأكل من تلك النعم وقد نسيت حموضتي , تمنيت أن أجلس يوما كاملا متمتعا بهذه الرفاهية , نظر لي الشاب الأصلع وقال : طيب ... تجيء الليلة بالاستراحة , حتى تقابل المصري , فقلت : من هو المصري ؟ فقال : الذي قام بالترجمة ؟ , فاستغربت : ألست أنت المترجم من الروسية الى العربية ؟ , فضحك وقال : من الذي لديه الوقت ليتعلم الروسية , نحن بالكاد نجيد العربية , اعتذرت له بمشاغلي, أصر علي وقال : سيعجبك الوضع , لم أعده بشئ , اذ أن أبا علي كان سينقل مثل تلك الأخبار الى المدير, كررت عذري, لكنه استغل قيام (أبو علي) للوضوء , ووضع العنوان ورقم الهاتف في جيبي .

في الطريق حاول (أبو علي) أن يرمي آخر سمومه , بدأ يتكلم عن فحش الأسعار وعن غلاء الأراضي وندرة الوظائف , فابتسمت وأعدت نفس المعزوفة التي حفظتها عن مديري , وكيف اذا نظرنا الى الصومال ونعمة الأمن والأمان , والغنم

تسرح في البراري لا يُخشى عليها الا الذئب , وأنني لو لم أكن ضعويا ضائعا لتمنيت أن أكون ضعويا تائها , وحين أنهيت وصلتي الطربية , نظرت الى ملامح وجهه وهو يحتقن من الغيظ , وهذه الأنواع من الدبابيس لا يجدي معها الا هذا الاسلوب , اذ قد يفسر ابتسامتك أو صمتك الى ما لا تحمد عقباه , وصلنا الى الادارة (رقابة نشر الكتب المترجمة (أخبرتكم عنها سابقا)), كان الدوام قد انتهى , غادر الموظفون الى منازلهم , حركت الاولدزوميبل لتتهادى على الطرق المكتظة بالبشر والحديد , هاتفت بروك شيلدز , لا تنتظروني على الغداء , أنا في مهمة رسمية للعمل , دفعت بسيارتي الى خارج المدينة , ميمما صوب البلدة , لأصل الى بيت صنيتان يتهيأ للسفر مع والدته , البنت المسكينة تتدثر بعباءتها وتضع على وجهها ملاءة سوداء , وضعت العجوز عصاتها على طبلون السيارة , البنت تقبع بين أمها وأخيها , تحركت الهايلوكس على الطريق الترابي , تبعتهم حتى استووا على الطريق المزفلت , وصلوا الى قرية ذات بيوت طينية , سألوا صبيا حافيا في الطريق / أين منزل الشيخ القارئ ؟ , ركض الصبي أمامهم يدلهم , حتى وصلوا الى منزل طيني فخم ذو ساحة كبيرة , نزل صنيتان (صعلوك الزمن الردئ) , انتبه الى وجودي , فغمز بعينه , اشرت له بكفي همست بخفوت (السلام) , خرجت شغالة هندية عجوز تلتفُّ برداء أبيض , كأنها شبح هارب من القبور واشارت الى طريق النساء , كان فناء البيت مملوءا بعلب الماء وصفائح زيت الزيتون المغشوش , خرج الشيخ وقد تدلت لحيته الى منتصف صدره , شئ ما جعلني اشعر أنه أفاك خبيث , عيناه كانتا تدوران بسرعة ولؤم , طلب أن يختلي بالبنت , بدأ صنيتان يهم بالخروج تنفيذا لتعليمات الشيخ , طلبت منه أن يبقى ولا يخرج , وقف عند الباب , طلب الشيخ أن يكشف عن وجه الفتاة وقلت : صنيتان , الجني المتلبس اختك يكمن في وجهها ! , سفرت البنت عن وجه أبله وابتسامة غبية , مرر الشيخ يده الى تحت صدرها , نبهت صنيتان : انتبه , هذا خبيث , وأمسك صنيتان يده , أعادها الى مكانها وظل الشيخ يهمهم , يحاول أن يضع يده على صدر الفتاة المذعورة وأمها تمسك بها بقوة , صرخت الفتاة وهي تنتفض , زاد الشيخ من قربه من الفتاة , لتقززي الشديد من هذا الاسلوب البعيد عن الدين , فقد غامرت الحموضة وقفزت الى فمي فبصقت على هذا الشيخ المخادع , اقترب صنيتان ليخلص اخته من هذا الوحش وقد وضع قدميه المشعرتين على حجر الفتاة , وصفعه صفعة قوية فأطاحت بعمامته , ظهر له قرنان أشهبان لا يراهما الا أمثالي ممن قارع الشياطين في بلاد الضعوي زمنا طويلا , وامه تصرخ : دعه يكمل القراءة , التفتُ الى صنيتان وقلت : حاشا لله ما

هذا بقارئ , إن هذا الا شيطان رجيم , نهض الشيخ , ووضع عمامته على رأسه وقال : اختك متلبسها شيطان أزرق ذو عيون حمراء وذيل برتقالي من طراز دانييل الفس برشلونا اف سي , لابد أن تأتوا بها الاسبوع القادم لنكمل القراءة , قال صنيتان : جزاك الله خير يا شيخ , نحن في بلدة نائية , لا نستطيع أن نحضر , صرف لها علبتي ماء وقارورة زيت , سأل صنيتان : كم تريد يا فضيلة الشيخ ؟ , قال : لا نريد منكم الا ثمن الماء والزيت , الف درهم فقط , اما أجر القراءة فهو صدقة لوجه الله تعالى , خرج صنيتان يسند اخته المرعوبة من الجن والشياطين , العجوز خلفهما تتوكأ على عصاها تتلمس طريقها , قالت : صنيتان مر بي على خالك (ملّوح) , لي شهر ما شفته (ما رأيته) , التمعت عينا صنيتان , بسرور : ابشري يا أماه ... سمعا وطاعة , نظر نحوي وقال : خلاص انتهى المشهد اليوم , قلت : ليس لدي شغل اليوم , أنا معكم الى المساء , وكأنه تضايق من وجودي , نظرت له : صنيتان .... أمك أمي واختك أختي , ما الذي يجعلك متبرما من وجودي ؟ أنكر : لاشئ , لا شئ , لا أريد أن أشق عليك , فخالي يسكن الصحراء , على بعد مائة كيلو متر , وطريق وعر , قلت : لا يهمك , ليس هناك ما يمنعني من مرافقتكم , وآلة الزمن بيدي , وبروك لاهية بمسلسلاتها التركية التي لا تنتهي .

أوقف صنيتان سيارته عند محطة بنزين ليتزود بالوقود , فعلت ذات الشئ , مضينا في طريق اسفلت مكسّر ثم انحرف جهة طريق ترابي وزوابع الغبار والحجارة تتطاير على رؤوسنا كأنها ليل تهاوى كواكبه , وعباءة العجوز ترفرف من خلال باب السيارة ويكاد رأسها يصطدم بالسقف مع تلك السرعة الزائدة , شدد صنيتان من قبضته على المقود وزاد في سرعته والهايلوكس تتلوى في الصحراء كأفعى آنست حر الشموس , الاولدزومبيل كشرت عن أنيابها وهي تلهث لتلحق بهذا الشيطان الخبير بالبراري , ارتفعنا في هضاب صفراء ونزلنا في رمال شهباء , عبرنا متاهات وطرق متشابكات يعيا فيها الماجلان (جني الملاحة الصحراوية) ويضرب أخماسا بأسداس , حتى رأيت على البعد سيارة مور وخباء أسود ووانيت جمس أحمر موديل الثمانين وأقدم , تحرك الجمس ليقابلنا في منتصف الطريق وقد خففنا من السرعة , واذا بسعلاة تضع برقعا على وجهها , وثنت السيارة حين عرفت القادم , وتبعتهم وأنا في فضول لأرى هذه المرأة الطوال العجفاء المصقول عوارضها ...

كجذع نخل حطه السيل من عل , طالعني صنيتان بارتياب , هززت رأسي أسفا على تكبدي هذا العناء , وصلنا الى الخباء الأسود وخرج (ملّوح) وهو شيخ طويل القامة , لعب الدهر على وجهه فاكتست ملامحه بالتجاعيد , لكنه يبدو صلبا ولا ينكسر من طراز اولئك الرجال الذين تشعر أن خلفهم تجارب مريرة , يحكى أنه رافق بندر بن سرور في رحلات التهريب في قديم الزمن على (الفرت) , حتى قال (يا لله ثبتني على الأرض لا أطير , لين اشرب الشاهي وآكل علاجي) , وقد كان له ذلك , فقبض على ملّوح وأودع السجن عشر سنين وخرج بعد ذلك ليتزوج ويرزق بابنة وحيدة هي (غزيّل) , فاجأتني هذه الأحداث المتسارعة , اوقفت المشهد واختليت بصنيتان على جانب وقلت : ما الحكاية ؟

قال : لا أخفيك يا (مؤلف) هذه بنت خالي (غزيل) , مطلقة وعندها طفل في التاسعة , وارغب بالزواج منها , قلت : صنيتان , اعرف واحد (صاحبي) متزوج من امرأة تشبه هذه الــ(غزيّل) , يلعن اليوم الذي تزوج به منها , يا رجل هذه مجموعة (غزلان هاربة) , ألم تشاهد الرشاش الكلاشنكوف الذي تضعه بجانبها على الجمس ؟ , هز رأسه وابتسم وقال : طبعا , هي بنت رجال , لم اقتنع وقلت : يا أخي حتى هي ضخمة وطويلة عليك , قال : لا تخف يا (مؤلف) , ان شاء الله أكون عند حسن ظنك وأبيّض وجهك (دهان يوضع في الضعوي لتزيين الأعمال السوداء) , عند هذه النقطة يأست من ثنيه عن رأيه وقلت تلك الكلمة لمثل هذا الموقف : كفو ... كفو ... وقد قالوا في الأمثال : يضرب الحب شو بيزل ! , نزلت العجوز و (رفعة البنت المتخلفة ذهنيا) .
تقابلت العجوز مع أخيها لقاء أطلال من الماضي , تعانقا وهي تلثم وجهه ولحيته ودموعها تبلل وجهها , أثناء ذلك خرج ولد أشعث أغبر , يفرك كفيه ويبتسم عن أسنان صفراء , تشعر أنه أكبر من سنه , وبعد السلام والتحيات , أشار (ملّوح) الى الولد اشارة خفيّة , فقفز كالملدوغ , وهجم على حوش الغنم القريب وأحضر خروفا أملحا يقوده باطمئنان ,نهضت غزيّل واحضرت شفرة حادة وهي تخبئها في ملابسها , نهض صنيتان وقال : عليّا الحرام ما تذبحه , وقال الشيخ : والله إن يموت ... يعني يموت , مضى كل منهما يحلف ويقسم مدة خمسة واربعين دقيقة وأنا انتظر , نظر الخروف الى ملّوح وقال : الرجّال حلف يا عم (ملّوح), لا تحنثه في قسمه والا زيادة هياط يعني , أخيرا وافق ملّوح مكرها (لا أعرف مكرها أو فرحا) , عاد الصبي , عاد الخروف يرفع ظلفيه علامة الانتصار , التفتُ الى صنيتان: لماذا لم تدعه يذبحه , ونأكل لحما هنيئا مريئا , قال : أنت لن تستفيد

, لا يراك الا أنا , هذه الحركة تحدث كلما أتينا خالي والخروف والصبي ونحن معتادون على ذلك .

غربان سوداء كثيرة جاءت تمد أجنحتها لتحجب الشمس , نظرت الى الساعة , لم ينصرم من الزمن الكثير منذ غادرت المدينة الكئيبة , الليل أقبل كراهب عجوز , الريح تلمني وتجمعني من أشيائي الأثيرة ,النجوم تنتظم كعقود على التلال , البرد يشحذ سكينته ,عما برهة من الزمان سيخرج ملايين العفاريت في بلاد الضعوي يتنزهون ويرقصون ويخطفون المارة من الطرقات , نظر إليّ صنيتان: يا (مؤلّف) ألم تتأخر في العودة الى بيتك ؟ أجبت : صنيتان , وأحرّ قلباه ممن قلبه شبمُ , ماذا أرتجي من عودتي الى هناك ؟ الا مديرا شرسا , وزوجة مستذئبة , وأولادا مشاكسين , وأبا ظافر , والايجار أدهى وأمر , أنا أعيش وقتا رائعا بصحبتك يا صديقي , ضحك صنيتان وقال : لتنعم بخير يا مؤلف , فأنت شخص حالم تعيش في زمن وهمي (عدّيت على ملاحظته , لم أبيّن له من هو الحالم في الزمن الوهمي , من الذي يحرك الأحداث ويتحكم بالزمن , من يستطيع أن يقضي على الشعراء , ويوظف الأبطال أخوياء ويزوجهم من حبيباتهم المبرقعات). غدا أيها الصعلوك ستعرف من الذي جعل منك قيمة , أو بطلا أو عاشقا من الصحراء , ومن الذي اذا شاء أعادك الى دكة الاحتياط ....؟

نهضت غزيّل بهمة تعد العشاء , تخبز وتحرك قدرا بجانبها , ما زالت ترتدي برقعها الذي لم يفارقها , اضطجعت قريبا من الخباء , كانت ريح باردة تهب من ناحية الشمال , ملّوح يتدثر بعباءة صوفية سميكة ويحرك (القمقوم) أداة لتحضير القهوة قبل صبها في الدلة (مفاعل نووي) , على مقربة من النار المشتعلة جلست العجوز وابنتها , صاح ملّوح : يا صالح .. هات التمر , نهض الولد ذو الأسنان الصفراء وأحضر طبقا , اختطف الدلة من جده وصب الفنجان الأول وقدّمه لجده فأشار الى صنيتان , وقلت : صنيتان , لا تنس الجملة التي يقولها البدو (والله ما اشرب قهوتك , كود تنطيني اللي وديّاه) ضحك صنيتان: هذا في المسلسلات لكن في الواقع لو قلت ذلك لخبطني خالي خبط عشواء , هذا هراء , شرب صنيتان وأمه وأخته القهوة وتكلمت العجوز وهي مستبشرة : ملوح , صنيتان , أبشرك , لقى وظيفة خوي مع أمير , , قاطعتها موجها حديثي لصنيتان : صنيتان , من الذي قال أمير ؟ , بالله عليك في كل الفصول السابقة هل سبق وأن قلت أمير ؟ , نظر صنيتان وهو يعتذر : لا , لا يا مؤلف , أمي أخطأت , أردفت : اذن صحح الخطأ بارك الله فيك , صحح صنيتان لأمه الخطأ الفظيع : هو مدير

صغير في بلاد الضعوي , تابعت الأم : صنيتان يريد يتزوج من غزيل , رغبت أن تختار العجوز كلمة أخرى مثل (يطلب يد غزيّل) , لكن سبق لسان العجوز قلم المؤلف , لا بأس ... , تنحنح ملّوح ليتأكد من قوة صوته: تعرفين صنيتان مثل ولدي وأعز , ولا رغبة لنا عنكم , لكن غزّيل هي التي تقوم على شئوني , منذ طلاقها من ابن عمها وهي التي ترعى الحلال (شوية الغنم التي يملكها ملّوح) , هي التي تسوق (تقود) الوايت وتجلب الماء والشعير , أنا شوفي على قدي (نظري ضعيف) , فأنا لا أمانع من زواجها بشرط تبقى عندي . لحظة صمت , لاريب أن ذلك فاجأ العجوز وهي تحتاج لأن تستشير صنيتان وأخته المعاقة التي لن يغير رأيها كثيرا , قطع الصمت دخول غزيل الى الخباء , تحمل صوان طعام به الخبز الأشقر الشهي (رائحته وصلت لي وأنا في العراء) والإيدام المكون من قطع دجاج وصلصة وأشياء يعرفها البدو ولا أعرفها , والروب (زبادي) واللبن , جلسوا يأكلون , لم يدعني الى الأكل كما في كل مرة , شخصية وهمية كيف لها أن تشارك أناسا تكتب عنهم طعامهم وشرابهم وهي ذات القضية التي تواجه المراسلين ومعدي التقارير , انهوا أكلهم , بدأوا بشرب الشاي الذي كان ابريقه على جانب النار المشتعلة , الزمن يتقدم , العجوز انتبذت مكانا بقربهم ونامت , لم تلبث رفعة الا قليلا حتى نامت قرب والدتها , ملّوح كان يخرج من الخباء ويعود يتفقد الغنم , يدور حولها ثم يعود الى مكانه , سألت نفسي / هل يخاف الذئب على غنمه ؟ الذئاب هاجرت من بلاد الضعوي منذ المجاعات الأخيرة , من يجد ذئبا الآن , فكأنما وجد كنزا أو أثرا قديما يحتفى به على صفحات الصحف , لا ريب أن ملّوح يخشى ذئابا أخرى , لم يطل المطال حتى ثوى نائما , يتلفف ببشته ولحافه , بقي الولد (صالح) (العلة) قريبا من أمه وصنيتان الذي كان يريد أن يتحدث مع غزيّل , نظرناحيتي وكنت اقترب من النار: ما تشوف صرفه مع الولد (حل ناجع) , دعه ينام أو اصرفه عنّا , أجبت : صنيتان الولد هذا أعياني , أوشك النوم أن يطرق أجفاني , أما هو فكأنه خفير موكل بحراستكم , تحدث صنيتان الى غزيّل بلهجة الغائب عن مستقبل آخر , يريد التعمية وتضليل الولد الذي انهمك بقرض أظافره بأسنانه , كانت غزيّل متحفظة , لكنها لم تغلق باب الأمل كلية , فتح صنيتان مشاريعا كبيرة عن دستة أولاد وغنم وابل وبيت كبير , سألت صنيتان : ألم تر وجهها ؟ , نفى ذلك ولم يحرص كثيرا على أن يرى وجهها , قلت صنيتان : تأكد أنها لا تعض , غضب مني , رد : أتريد كل قصص الحب على طريقتك , نحن هكذا , تريد أن تكتب أو انصرف مأجورا , طيبت خاطره , اعتذرت منه , رضي بسرعة , الصعاليك لا يغضبون كثيرا , استأذنت منه بعد أن طلبت منه توصيفا

شافيا لطريق العودة , خشيت الضياع في هذه الصحاري , في المدينة أواجه صعوبات في الوصول الى بعض الأماكن , فكيف يكون حالي في هذه المتاهة .

حركت الأولدزومبيل , عكس الرياح الشمالية التي تزأر بالخلاء , اضاءت النجوم كبد السماء , تلصص البرد على جسدي , قرع أذني صوت صنيتان (يامن يرد لي غزيّلي اربح الله تجارته) , خرج العفاريت من كهوفهم , اجتمع الجن يتسامرون في ليال الشتاء الطويلة , يلعبون الضومنة (الشطرنج البدوي) , رأيت فيمن رأيت عفريت(جني المدينة) المتهم بسرقة 400 مليون درهم من بيت مال المسلمين , فتحت زجاج السيارة وخاطبته : لماذا يا حقير , يا واطي , تسرق هذا المال , يعني ألا يكفينا الإنس الذين يسرقون , حتى تشاركون أنتم أيها الجن في وأد مستقبل الأجيال الناشئة ؟

أشاح وجهه , أكمل لعبه مع أصحابه غير عابئ بصراخي , مضت السيارة تطارد الظلام والوحشة حتى رأيت على البعد أضواء السيارات تعبر الطريق المسفلت , يممت جهة الأضواء , زايلني الخوف , وصلت الى الطريق , ارتقت الاولدزومبيل الطريق , تئن من البرد والإنهاك , أعدت عقارب الساعة الى الوراء , حتى طرقت (مقهى حين يأتي المساء) , رأيت الزبائن المترنحين , العاطلين بدون أمل , الموظفين المتقاعدين , الجنود العائدين من الثكنات يتجادلون على الحساب رغم ضعف الحال , في بلاد الضعوي نحن نسير بقطار يأبى أن يتوقف , اتجهت الى مكاني المعتاد , وجدت الأوغاد المدرسين لاهين بأجهزتهم الالكترونية , سلّمت وطلبت وصفتي للتحليق بلا أجنحة التي تنقلني من عالم البؤس والحرمان الى آفاق الأساطير , حكايات حوريات البحر والكنوز الغارقة والمغارات التي تفتح بسهولة , انهمكت أكلّم أصحابي , بصعوبة انتزع الإجابات من شفاههم , خجلت من تخلفي التكنولوجي , مع هكذا أصدقاء من يحتاج الى أعداء , كأني أحدث نفسي , بئست الصحبة يا أوغاد , لن ألبث كثيرا في هذه الحياة , حتى اكتشف أن الوحدة أفضل من صحبة هؤلاء الثلة , والطغمة من رجالات الضعوي , أنهيت مخمختي , دفعت حسابي , خرجت , لم ينتبه الأصحاب المنشغلين لخروجي , دخلت المنزل , لم تكن هناك مشاكل عائلية , بحثت عن (دراكولا) لألعب معها لعبة (الغول والأميرة) , في هذه الحالة أنا الغول واختطف الأميرة , وأختبئ ليبحث الأولاد عن الأميرة (دراكولا) وبينما نختبئ تحت البطانية ونحن نضحك , اتساءل / أين الأميرة ؟ , وتبدأ الاقتراحات , هي هربت , هي ذهبت الى السوق , هي تقود سيارتها وفيما هي تستمع للاقتراحات تسقط في الجولة الأخيرة لتصرخ

وهي تضحك : اندذوني (انقذوني) وهكذا , دون أن نمل أو نشعر بالزمن , حتى تأتي بروك شيلدز إحدى أفضل النساء على قيد الحياة في علم النكد وتعلن عن العشاء .

الفصل الخامس / الطريدة والصيّاد

(اذا لم تستطع العض , فلا تظهر أسنانك)

في الصباح هاتفت مديري لانتزع منه سويعات أذهب بها الى مدرسة وليد , لأرى ماذا يريدون ؟ , حين دخلت على مدير المدرسة حاول أن يصب في أذني ما شبعت وسئمت من سماعه عن أهمية التعاون بين البيت والمدرسة , قاطعت المدير: يا استاذ , أنا أبذل مجهود تدريس أبنائي بالنيابة عن مدرسيكم , يجب أن تقتطع من رواتبهم وتدفع لي . طلبوا وليد , قابلته عند المشرف الاجتماعي , الذي تكلم عن مشاغباته وعن تأخره الدراسي , وعدته خيرا , , حرّصت ابني بأن يجد ويجتهد لينضم الى صفوف العاطلين بالقريب العاجل , كنت متفاجئا كيف أن ابني أوشك أن ينهي المرحلة الابتدائية و لا يستطيع أن يقرأ الا بصعوبة بالغة , وكيف كنت في سنتي الدراسية الثالثة أحرر الخطابات لمشايخ قبيلتنا ليطلبوا من أبنائهم المهاجرين ارسال نقود لهم , أو يطمئنوا على أقاربهم المرضى .

عدت من العمل سئما من الزحمة , ركنت سيارتي , واذ أشاهد أبا ظافر ينتظرني عند الباب , كثعلب ينتظر دجاجة تطير , لولا أن الدجاجة لن تطير , فلا تعرف الا ذات الخن , طرق فولت كهربائي مقداره مائتين وعشرين فولت رأسي , تذكرت الايجار والزيادة المقررة , هتفت : أبو ظافر أنا فداء ذا النخرة (ثكلتك أمك يا صعصعة) , نقرته بأنفي مرتين أو ثلاثا , صافحته بحرارة , لعل تلك الحيل تنطلي عليه , قال : يا مؤلف , الايجار وجب , وكما أخبرتك مع الزيادة أصبح ألفين درهم , توسلت بأجدادي , رقصت عشرة بلدي , عملت نوم العازب , تسلقت الهمالايا , حاربت التتار , حلبت لبن العصفور اليتيم , حفرت الصخر , بكيت دما , قلعت ضرس العقل كي يؤجل الزيادة الى نهاية العام وأدفعها كاملة , هز رأسه بعناد : تعرف لولا إنك أنت وسيرتك الطيبة معي من خمسة أعوام لما قبلت , فأرجو أن تمر على المكتب لتوقع العقد الجديد , شكرته مادحا أصله وفصله من تلك الديباجات التي يمررها الناس في الضعوي فيما بينهم ملايين المرات في اليوم .

اليأس أطبق على صدري , جمع حشودا من الكآبة , خيّم الحزن قريبا ... قريبا من القلب , أفكر أحيانا بالهرب الى مكان لا أعرف أحدا به ولا يعرفني به أحد , متى يا الهي تفك قيودي من العمل , من بلد النفاق ,من هذا الواقع الكئيب , الهي طال على موائد اللئام مكوثي , بل خسئت يا حارث بن مرة , كان الشيطان سيجد طريقا الى روحي الوثابة المتحفزة , سأناضل وأكافح حتى يأذن الله بالفرج في بلاد العدل والإسلام التي لايبات بها امرؤ ما مظلوما (... حتى مع نفسه , المؤلف

يمارس المداهنة ....) , لو لم يكن لي من بهجة الحياة الا ابنتي (دراكولا) وابتسامتها البريئة , لو لم يكن لي من متع الأشياء الا مسرحية الغول والأميرة , لو لم يكن لي الا لحظات الغروب التي أعشقها , لو لم يكن لي الا الأمن والأمان , لاستحقت كل هذه الأشياء العناء والصبر والتضحية , كنت في حاجة الى أن أرفه عن نفسي .

خبطت الأولدزومبيل على صدرها ففهمت مرادي فتحمحمت وهمهمت ولو تعرف الكلم مكلمي , فقطعت رباطها , نطت عاليا كالكرة , فأمسكت بلجامها , ومسحت عرفها , أرخيت الزمام فقصدها ريح الصبا من شمأل , يتجمع هناك ثلة من البدو الجهلة ومدير صغير ذو نسب وحسب عريق وكلاب وصقور وموكب من السيارات والحافلات والمنازل المتحركة وصعلوك يهمني أمره , فأوحيت لها / سيري على قوادم الطائر الميمون , ولا تركنين الى عجز وفتور , صهلت الأولدزومبيل وكحت و.....

زأرت زئيرا عاليا , تمطّت , صلصلت محركاتها , مضت الأولدزومبيل تتفلت على الطريق تفلتا عجيبا , حدثتني نفسي أن سيارتي تلبسها جني مفحط يمت بقرابة لشوماخر الألماني , مع تقتيري عليها بالزيت وتغييره في المناسبات الوطنية الا أنها ترزم كأنها ابنة 2012 , وجهتها على الطريق الذي تعرفه أكثر مني , في أحايين أظن لو أغمضت عيني لقامت بالواجب على أكمل وجه , طريق الجحيم المعهود آلاف السيارات تتزاحم لتجد موطئ قدم , خرجت من الزحام بسلام , هنأتها , شددت على مقودها , طبعت قبلة طائرة على طبلونها , رأيت موكبا يتكون من مئات السيارات تتجمع على جانب الطريق السريع , فيما كانت شرطة السير تحجز سيارات مواطني الضعوي وفي السماء طائرات عمودية تحجز الطير عن الطيران فوق منطقة العمليات , تلك احتياطات أمنية وبرستيجية ليمر موكب المدير الصغير ابن ماء السماء , كانت سيارات الموكب من أحدث السيارات المصممة لعبور الرمال والجبال والبحار , مقطورات فاخرة تصطف , تحمل كلاب الصيد والصقور المدربة واسطبلات الخيول الأصيلة من سلاسة عريقة قاتل عليها الصحابة الكفرة والمرتدين , تسللت الأولدزومبيل لتقف مع الموكب الحاشد , منظرها كان غريبا بين هذه السيارات الفاخرة من أحدث الموديلات كنبتة صبار غريبة بين زهور ملونة , لو لم تكن سيارة الراوي لأمسك بها الشرط بتهمة تجمع مشبوه , بحثت بنظري عن صديقي صعلوك الزمن الردئ , فوجدته وقد لبس

البالطو المخصص للخدمة واعتمر كوفيته كما يفعل أهل دبي , رفعت صوتي : صنيتان , ما هذا , هل أنتم ذاهبون تعيدون الأندلس الغابرة ؟ أو تحررون بيت المقدس السليب ؟ ما بال هذا الجيش والأسلحة التي وضعت على السيارات ؟

قال : لا , لا , لا تكن متفائلا , هذه رحلة قنص الى محمية المدير الصغير . سألت : ماذا تقنصون (تصيدون) اذا كانت الأرانب والغزلان قد انقرضت من سبعينيات القرن الماضي ؟ أجاب : هناك غزلان وأرانب وحباري مستوردة من الباكستان وأفريقيا وهي مدربة على تلك المهام .

أشار رئيس الخوياء للموكب بالحركة , كأنه صلاح الدين يأمر جنوده بمطاردة الصليبيين , كان رئيس الخوياء قائدا بالفطرة , لم ينس رغم مهامه الكثيرة صناديق الحجارة التي يتأكد بواسطتها من عدد موظفيه وكلابه وخيوله وصقوره , وأحضر صندوقا آخر للطرائد , كي لا تفقد طريدة أو تسرق , وبعد أن مضى الموكب الكريم , سمح لأسارى الضعوي بالمرور في الطرقات بعد أن تبلدت وجوههم , لو بصقت على أحدهم لما انتبه الى وجودك من السأم والساعات المملة التي حجزوا بها في عرض الطريق . سمحوا كذلك للطير أن تعبر الى أعشاشها وتطعم صغارها , اقتربت من الجحفل اللجب , يتجمع شعراء من الأعراب المنافقين , شيوخ رسم الدهر عليهم تجاعيده , وشبان صغار يلبسون بشوتهم وينظرون الى أعطافهم خيلاء وفخر , يبدو أنهم جدد على الصنعة , فكانت البشوت تنزلق من أكتافهم ويعيدوها مرات ومرات , حدثتني نفسي الأمارة بالسوء أن أقلب باصهم الذي يركبونه وأفرق شملهم أيدي سبأ , لكن قلت قد يخرج من أصلابهم من تعني له كرامته شيئا ما , لم يكن المدير الصغير المبجل في الموكب , فهو سيصل بطائرته الخاصة الى المحمية بعد أن تنتهي الترتيبات ويعرف كل انسان وحيوان دوره في الرحلة . بحثت عن ساعتي لأقوم بتأخير الزمن , حريصا على ألا تفوتني تلك التفاصيل الصغيرة , لكني كنت جائعا , هادنت عصافير بطني وأقنعتها بلوزين (ايهام شيطان الجوع أنها مندي لحم) , لكن ظلت تلك العصافير تئز وتصوصو فخشيت أن تخرج وتطير فوق رأسي وتلفت الأنظار , فأوقفت الموكب , نزلت عن الطريق الى مطعم يملكه يمني كنت آكل به في زمن العزوبية المفقود , نصيحة أحد الأصدقاء لا تطلب لحما فقد يكون لحم حمير أو كلاب كانت حاضرة في ذهني , وطلبت المنيو (القائمة) وظل يسرد عن ظهر قلب , لحم مندي , لحم حنيذ , سباجيتي بالفئران , اسكالوب بانيه , صراصير بالموز , حمام محشي بالقهر , دجاج , سمك , بط , طلبت لحم مندي , قال : لا يوجد , انتهى , طيب : لحم حنيذ ,

وأيضا , وفي كل مرة , أعرف أنها تنتهي , على دجاج شواية مع الرز , أنهيت وجبتي , تابعت طريقي وحرّكت المشهد , تحرّك الموكب , تابعت مع رئيس الخوياء يقود حملته المظفرة الى المحمية , وصلنا بعد لأي ونصب , كانت أرضا جميلة تُحمى أن يدوس عليها بشر تمتد مئات الكيلومترات , من يجرؤ على أن يطأها فقد ارتكب جرما عظيما , فهي أرض بكر, محرمة على مواطني الضعوي الا من يرافق المدير الصغير . مضى الرئيس يوزع المهام , بحثت عن صنيتان , فوجدته , أحاطت به كلاب الصيد (السلوقيات) , حين لمحني قام مسرعا , خطف حجرا ضخما ورمى به نحوي , تفاديته , هجم ناحيتي مكشرا عن أسنانه , عجبت لفعله الغريب هذا , ربما وشاية نقلت له عني , ربما حنق علي في موضوع (غزيّل) , صرخت به : صنيتان , ما بك , هل جننت ؟ , ظل صدره يعلو ويهبط , كان غاضبا أشد ما يكون الغضب , هؤلاء الصعاليك حين يستبد بهم الغضب يتحولون الى وحوش كاسرة , مضى يتحدث : هل هذه وظيفة تخصني بها , بئست الصحبة يا مؤلف , ليتني ما عرفتك , معرفة جرّت ندما , والله إني لأقنع باليسير من الرزق مع كرامتي , الآن اصبحت مروّض السلق ما ذا سيقول الناس عني ؟ . هدئ من روعك يا صاحبي , تفهمت غضبه , ومضيت أجمّل له الوظيفة , لأن تصحب الكلاب , خير من أن تكون في زمرة الكلاب , وسأريك في اليومين القادمين , معدن الشعراء والأخوياء وسائسي الخيول ومدربي الصقور , ومن يهتم ببعض الأمور التي يندى لها الجبين , لم أتخلص منه الا بعد وعد بتغيير اختصاصه , كان رئيس الخوياء الهمام يقوم بجولته التفقديه , بجانبه يسيرنقيدان يحمل أسماء الرعية , صاح بصوت عال : واواواواوا واااااه , خرجت الكلاب السلوقية تتبختر , رفرفت الصقور وحضر الشعراء المنافقون زحفا على الأكواع والركب , حضر الاخوياء الآخرون , وجاءت الخيول تصهل , في أقل من ثلاثين ثانية كانت الكلاب والشعراء والصقور والخيول والخوياء تقف في وضع الاستعداد , بدأ نقيدان يقرأ الأسماء , صنق , مجعل , محماس , مرتهي , هجاج , مزعل , نوف , مشاعل , خرجان , برغي , صرصار , بربار , طرطار , قرشع , برطش , جعص , شرار , خنفس , بريعص , طحيمر , نقيدان , صنيتان , طنيخر , هيثم , دعد , خصيفة , جعران , حسو , بقيران , مخنز , باسم , شعيبط , بجد , حنش , برغش , بريطم ... الخ , أسماء تضع صاحبها مؤبدا في غير الضعوي , حين انتهى وقد أحصى العهدة , حيت الكلاب وانصرفت , انحنى الشعراء وانصرفوا , صفقت الطيور أجنحتها وعادت الى أقفاصها , صهلت الخيول , نبح الخويا , عادت الحجارة الى الصناديق آمنة مطمئنة تسبح بحمد ربها أن خلقت حجارة ,

أمر رئيس الخوياء بصرف وجبة الغداء , نبه الى موعد البروفة الأولى بعد العصر .

في الصباح الباكر , حضر المدير الصغير ابن ماء السماء بطائراته الخاصة الثلاث , جلس يحيط به هذا الجمع الغفير من الحجاب والشعراء والخوياء وسائسي الخيل الانجليز , ومصوري وكالات الأنباء العالمية , لنقل هذا الحدث الخطير الى الفضاء , قطعت وكالات الأنباء , السي ان ان , البي بي سي , والفوكس نيوز نشراتها الاخبارية , انتقلت الى بث حي مباشر , قطعت الامم المتحدة جلساتها , علّقت ناسا رحلاتها الأخيرة , توقف الثوار في كل أنحاء الأرض عن الثورة , أنصت الموتى بهدوء , عطّلت البورصة نشاطاتها , اكتست ملامح رئيس الخوياء بالجدية , قام بجولة أخيرة على الحيوانات والبشر , قرأ عليهم واجباتهم , هزت الكلاب رؤوسها , أذعن البشر , مرّ على الطرائد في أقفاصها , قرأ عليها وردها الختامي , كيف تقوم بالجري وكيف تستسلم وما الى ذلك من ترتيبات , جهد أن تخرج بالشكل اللائق الذي يرضى عنه المدير ويرفع اسم الضعوي عاليا بين الأمم , نبه الصقور والحيوانات والبشر الى أن الحفل ينقل على الهواء مباشرة الى أكثر من مائة قناة عربية وعالمية , لمّح الى النتائج التي ستتمخض عن هذه الرحلة الميمونة فيما يعود بالنفع العميم على الحيوانات والبشر .

بدأ الحفل بإطلاق الأرانب والغزلان , تجهز المدير الصغير , ركب حصانه أحاط به الخيالة الانجليز من كل جانب , جرت الطرائد توقفت في تلك الأرض المخضرة الجميلة التي تتجاوز مساحتها مئات الكيلومترات ترعى, جاء صنيتان ومعه بعض الخوياء , أشار المدير ابن ماء السماء بيده فانطلقت الكلاب السلوقية , تطارد الأرانب والغزلان .

جرى كلب سلوقي خلف أرنب متأنق , يمم صوب جهة بعيدة كخط زبور في عسيب يمان , لم يتفق عليها مع رئيس الخوياء , كان أرنبا ثائرا , لم يعجبه أن يكون طريدة , غضب المدير , غضب رئيس الخوياء , نوى في قرارة نفسه أن يلغي عقد الأرنب المتمرد , لم يستطع الكلب أن يمسك الأرنب العنيد الذي وقف بعيدا وأشار با صبعه بحركة نابية هكذا (T) لكنها مقلوبه , التقط رئيس الخوياء الهاتف الجوال , خاطب الأرنب بغضب : لم تفعل ذلك , لم يكن هذا الاتفاق

؟ , شتم الأرنب الشجاع رئيس الخوياء أقذع الشتائم وذكر أمه بسوء , نظر المدير الصغير الى الرئيس نظرة غضب , اسودّت الدنيا بعين الرئيس وصرخ : صنيتان , اطلب (نوف) حالاً , صرخت الأرانب المذعورة لتقنع زميلها بالاستسلام , طلبت الأرانب من رئيس الخوياء مهلة لإقناع رفيقها المنشق , رفض رئيس الخوياء طلبها , قال بحنق : العالم يصورون , وهذا الحيوان يريد يشق عصا الطاعة , نبه صنيتان (نوف) الى مهمتها , ,أعطاها مختصرا عن الإحداثيات , وضرورة الإمساك بالأرنب , خرجت نوف , نزعت نظارتها الشمسية , هزت ذيلها , قاست المسافة بالنظر , كان الأرنب بعيدا , يقوم بحركات قرعاء , يقف على يده , أحيانا على قدمه , يشير الى الرئيس الغاضب بحركة تهديد يبصق على المتجمهرين , تأزم الموقف , نقل مراسل السي ان ان حركة الانشقاق هذه , نفى الرئيس الخبر جملة وتفصيلا , قرأ صنيتان للمرة الأخيرة على (نوف) واجباتها وهي كلبة مدربة تجيد النباح بلغتين , لها حظوة عند المدير الصغير ابن ماء السماء تأتي بعد رئيس الخويا في الأهمية , انطلقت الكلبة خلف الأرنب , جرى , جرت الخيول , وبقية الكلاب والخوياء الموظفون , تابعت الوكالات الحدث بطائراتها , نحن نجري والكلاب تجري والخيول تجري , جاء الأعراب من كل جانب يتصايحون ويثيرون الغبار , تحركت سيارات مدججة , كاد المساء يأتي , نظر لي رئيس الخوياء قائلا : انتبه , لا ينتهي اليوم الا والأرنب في السجن , طمأنته لأن ما يقوم به الأرنب هو مخالفة صريحة لنظام المحمية , مخالف أيضا لنظام الولاء في الضعوي , تساءلت أرنب مثل هذا يعيش في بحبوحة من رغد العيش , ما الذي يجعله يثأر لكرامته , وقد بيعت منذ عقود , ورضي بذلك , لاشك تفكير الأرانب المتخلف هي النتيجة التي تجعل الأرانب تكتسب هذه السمعة السيئة بالانشقاق والتمرد .

جرت الكلبة خلف الأرنب المنشق , قربت المسافة , شعر الأرنب بالتعب , صاح به زملاؤه من الأرانب الأخرى : استسلم ولن يمسك أذى , رفض الأرنب , استمر يجري , اقتربت نوف منه , التفت الأرنب بحركة مفاجئة الى الكلبة , قال : يا منافقة , فوجئت الكلبة بالكلمة , ترددت قليلا , أحجمت , لكنها أمسكت به , ظل الأرنب يشتم الكلبة وكل الكلاب , بتلك الألفاظ التي اعتادت الأرانب أن تشتم بها الكلاب , لو لم تكن كلبة مدربة على ضبط النفس لبطشت بالأرنب , أشارت نوف الى أحد الخوياء وسلّمت له الأرنب المنهك , وأخذت وصلا بالتسليم , رفعت يدها

تحيي الجموع المحتشدة اشارة النصر (V) , ابتسم المدير , تهللت أسارير رئيس الخوياء , ضحك الخوياء , صهلت الخيول , نبحت الكلاب , هتف الشعراء والأعراب (الموت للأرنب) , اقتيد الأرنب الى القفص , أجرى الرئيس تحقيقا سريعا , خرج الى الوكالات المحتشدة , صرح بأن الأرنب يتعامل مع قوى خارجية واضاف يتعاطى أيضا حبوب الهلوسة , كان يوما سعيدا , امتدح فيه رئيس الخوياء حنكة صنيتان , ابتسم لي , يخرج الدراهم التي أمر الرئيس بمنحها له بغبطة وفرح , رأيت سعادته , ذكرته بما كان يقوله عن ترويض السلق , اعتذر عن خطأه وسامحته كالعادة , المؤلفون غالبا يتعاطفون مع أبطالهم الا من رحم ربي .

خاطبته : صنيتان , أنا تأخرت , ماذا بقي من الفعاليات ؟ أجاب : هناك صيد الطيور , جولة الغزلان , زواج المدير من فتاة من البادية , ثم هناك أخيرا الحفل الختامي وقصائد تمجد المدير الصغير ابن ماء السماء وشجاعته وكرمه , ربما تكون هناك مسابقة النباح الدولية وهي مفتوحة للبشر والحيوانات والطيور, يأتي بعد ذلك توزيع الهدايا والمكرمات والهبات . سألته عندئذ الأرنب المنشق , قال : الأرنب يرغب أن يرقى الى كلب صيد , لكن الرئيس رفض إلا أن يكون طريدة , تعجبت من طموح هذا الأرنب المسكين , في الضعوي إما أن تكون طريدة أو كلبا أو صيادا , وكلها تحتاج الى سلسلة طويلة من الإجراءات , طرأت لي فكرة : صنيتان , هل تكلم (نوف) لتسعى بنفوذها في نقلي الى بلدتي الصغيرة في الشمال , ضحك صنيتان حتى كاد أن يخرج من ثيابه , قال : يا مؤلف متى تقتنع بأنك شخصية وهمية ؟ أسررتها في نفسي وقلت : يصير خير إن شاء الله يا صنيتان , ودعته وضربت موعدا في اليوم الختامي , كانت الحموضة قد أنهت استعداداتها للإنقضاض على المرئ , حسبي الله على مرارة العيش وحموضة المعدة , لكن الحر مبتلى في هذه الدنيا , وكزت الأولدزومبيل , أيقظتها من نومها , تثاءبت , مضت تقطع الطريق في صمت , قطعت حبل الصمت ودفعت في حلقها بشريط أثير كنت أحب سماعه (بالله عليك يا موزّع , خذ معانا بريد يو , بريد من عند خلي , وقلب خلي حديد يو) , وصلت الى المنزل , لكن نظرة الكبرياء التي رأيتها في عيني الأرنب لم تفارق خيالي , يا له من أرنب أبي النفس , لا يصبر على الضيم , تذكرت موعدي مع أبي ظافر لتجديد العقد , طلبات مديري

التافهلمراجعة كتاب الثورة الروسية , معارك سد النفس مع بروك شيلدز وأولادها , رفعت كفي وأشرت : كفى لن تجتمعوا مع الحموضة في ذات الوقت .

الفصل السابع / عندما هاجمتنا طيور البطريق , وصالون المترجم , وثعابين أخرى ....

(لا يوجد متعة في شنق رجل لا يعترض على ذلك)

دخلت الى المنزل , هناك حركة غريبة , أقبلت نوارة القلب (دراكولا) : يبه ... يبه , خالي أبو يوسف عندنا , حين رآني أخرج من كمه طيور البطريق , بدأ بتسييرها تجاهي , ناحت الاسكيمو , صفقت ريح باردة الأبواب , لفحني الهواء البارد , كلما رأيت صهري العزيز تحدث لي هذه الأمور , أخرجت ولاعة , قدمتها له , نظر مستغربا : ما هذا يا مؤلف ؟ , قلت : أبا يوسف , أدفئ الطيور , ابعث حرارة تذيب الأجواء الباردة بيننا , يوما ما يا أبا يوسف لن نرى بعضنا من الثلوج .....

جمعت طيور البطريق , ألقيت بها من النافذة , قربت المدفأة لتسخين علاقتي بصهري الباردة من سنين , كانت بروك على الموعد , جاءت بالقهوة والشاي على عجل , جلس الأطفال يأخذون قدوتهم الحسنة من خالهم , فالواد إن طاب طيبه من خواله في الضعوي , وإن تردّى فالسبب حتما أبوه , تململت من الجلسة الرسمية التي حشرت بها , أحضرت بعض النكات السخيفة لأمررها لأبي يوسف لعلي أرى أسنانه , لكنه استعصى على كل الصعايدة والحواطة والاسكتلنديين الذين أحضرتهم , كان يجيش بصدره حديث آخر , لا شك لدي أنه يحوك مؤامرة مع أخته كما حاكها حين وضع قدمي بقيدها سنوات النحس , كشفت أوراقي , تحدثت عن العوز والفاقة والإيجار المفروض , قاطعت بروك شيلدز اسطوانتي , تكلمت عن ضرورة الشغالات لنساء الضعوي الكسالى , أبدى أبو يوسف استغرابه من هذا البيت الذي لا توجد به شغالة , طمأنت أبا يوسف وبروك على نيتي التقديم على خادمة منزلية من الحبشة , أكدت على أنها ستحضر طقم السكاكين معها كشرط للقدوم , ضحكت بروك وقالت يمكن تستخدم خبرتها في التقطيع ضد ابنتك (دراكولا) , اقشعر جسدي , شعرت بالحزن يسيطر على قلبي , تخيلت ابنتي الضعيفة أمام ساطور الحبشية لا حول لها ولا قوة , استأذن أبو يوسف , أثناءخروجه من الباب الخارجي قام بجمع طيور البطريق واعادتها الى جيوبه لاستخدامها في لقائنا القادم , جاءت دراكولا , صرخت (اندذوني) تذكرت لعبتنا الأزلية (الغول والأميرة) , تداخلت بروك باللعبة بفاول من خارج منطقة الجزاء , قطعت اللعبة , التفتُّ اليها : بروك لعبنا مع بعضنا

عشرين عاما , أو لعبت(ي) بحسبتي عشرين عاما , دعي الأطفال يمرحون قليلا , صرخت : من يرتب البيت ؟ من يزيل هذه الفوضى ؟ أكيد شغالتكم المسالمة (أنا) , هرّبت الغول من تحت الباب , ودعته على أمل أن أراه في مناسبة أخرى , عادت الأميرة الى فراشها , أوى القراصنة الى فرشهم , هربت الى جزيرتي المعزولة في الكاريبي , نسجت ستائر الصمت , أحكمت خيوط العنكبوت , جاء خالي يعاتبني : لماذا لم تقم بزيارتي في أيامي الأخيرة ؟ , شعرت ببرودة في جسدي , قلت : أشعر بالبرد يا خالي , نظر ورائي , قال : ستهب عاصفة , عليك أن تتدثر جيدا يا (خفيّش) , استغربت كيف يناديني باسم الطفولة الذي غيرته , لمحت ورائي سحب داكنة سوداء , قام خالي بظله الطويل , تراءى لي عملاقا , بدأ يعبر الأفق , يقفز الجبال , أصبح يمتد في كل جهة أنظر اليها , يوم آخر للكوابيس , كل مرة , كنت أنجح في الاستيقاظ , أقنع نفسي , فقط حلم أو كابوس , ينتهي عند اللحظة التي أفطن بها الى ذلك , نهضت , التقطت قارورة الماء بجانبي , جرعت من الماء , تعوذت من الشياطين , ضحك خالي , مد يده تجاهي , أعطيته الماء , شرب الماء , نزلت قطرات على لحيته البيضاء , مسح فمه ولحيته , أكمل : عما قريب سيحل الظلام , انظر خلفك السحب السوداء تغزو السماء , في حذر نظرت ورائي , ظلام مريع يتمدد في الأفق , صرخت : خالي , هل هذا يوم القيامة ؟ , في كل زيارات العتاب التي يأتيني خالي , لتقصيري في زيارته قبل وفاته , كنت أتحاشى أن أسأله , قال : لا , ليس يوم القيامة يا (خفيّش) , هيا , قم لتدفئ نفسك من هذا البرد , مضى خالي , بدأ يتوارى خلف الظلام , رأيت فوق رأسي (بروك شيلدز) وهي تسحب الغطاء على جسدي , صوتها له صدى الجبال البعيدة : غط نفسك ك ك ك, لا تبرد د د د .

دخلت على مديري القذر , بحثت في أقنعتي النفاقية , استهلكتها , مدحت حنكته , ذكاءه , وسامته , أرومته , فضله على البلاد والعباد , لم يبق في جعبتي من عصافير ولقالق النفاق الكثير , سلمت عليه , لعنته في سري للمرة الألف بعد المليون من رحلة الشقاء التي قال عنها من قال / عدوا لا ترى من صداقته بدٌّ , التهى بأوراق في يديه , تجاهلني بصلف وغرور , مددت حبال الصبر الى آخر البئر , شرب القهوة , تمطى , تثاءب , نظر الى الأوراق مرة أخرى , لعنت أصله وفصله , عرجت على مثالبه , حين تعييك الحيلة , العن عدوك في سرك , ابطش به في خيالك , اسحبه في شوارع سبتة وطبرق ومليلة ومكناس وبيروت ,

اسحله في عرعر وطنطا ووجده ثم اجمعه في جزر القمر, بعثر كرامته في الريح , ارزعه في البراكين الثائرة , تنتقم لكل لحظة تعالي واهمال تصدر من هذا القذر , التفت فجأة وقال : يا مؤلف , هل تشتمني في سرك ؟ , أنا , أعوذ بالله , أن أكون من الغاوين , تمتم : لكنك تهمس بينك وبين نفسك ؟ , أنا أدعو لك بطول العمر والبقاء والسؤدد , يا سعادة المدير , لن يكون هذا الكون جميلا الا بوجودك وحكمتك , لا أعرف مصير العالم حين يغادر الحكماء هذا الكوكب , أنت يا سعادة المدير , إحدى السنن الكونية التي لا يستقيم الحال الا بها . ابتسم بخبث , كان يعرف كذبي وتهويمي الخادع في حبه , لكن هذا ما يليق به , هذا هو الكلام الذي يملأ أذنيه به من الصباح حتى المساء ولا يمل من سماعه , يسمح في أحايين أن يأتي له الشعراء ليقولوا في حكمته وادارته المعلقات , يريد أن يبقى في صفحات الجرائد , لذلك , حين تكون له صورة أو حديث , أو تصريح , يشتري نسخا اضافية يوزعها على الموظفين الغلابى , ثم يتلصص ليرى هل قرأوها أم رموها تحت أقدامهم .

قال المدير القذر : نريد منك اليوم تأتي الى استراحة المترجم , تعرف العنوان ..؟ , ما يوم حليمة بسر , لا بد أن المترجم الأصلع قد أخبره , اعتذرت له , يا سعادة المدير , أنا لا أرغب بالمجيء , هذه جلسة علية القوم , مَن أنا حتى أقحم نفسي في جلسة الأدب والأدباء والوجهاء من أناس الضعوي , رد بصوت حاول أن يكون عميقا , كعادته حين يعرف أن الرفض لا يكون في قاموسه : لا , لا , أنت موظف نشيط ومثقف , لا بد أن تأتي . أي جدال بعد جملته تلك سيعتبر عصيان مسلح , خيانة كبرى , انتهاك للشرعية الدولية , استغلال للأطفال , هززت رأسي بخضوع : اللي تشوفه يا طويل العمر , اضاف بنفس الثقة الملعونة التي تعطي الأغنياء والمتسلطين في الضعوي تلك الرنة الخاصة في الصوت : سيمر عليك السواق أبو علي بعد المغرب .

أعلنت حال الطوارئ , استنجدت ببروك شيلدز , التي هللت مستبشرةً بهذا الفتح المبين , قالت : يمكن يرسلك الى دبي أو باريس في الانتدابات التي يرجع بعدها المنتدبون وهم يحملون خياشا من الدراهم والقناطير المقنطرة , طمأنتها , لن يحدث ذلك يا بروك , فهم يعرفون من يرسلون , لكن ربما يريد أن يستفيد من خبرتي بتأليف الروايات , لنكمل كتاب الثورة الروسية , سألت باستغراب : روسيا صار بها ثورة ؟ ! مثل مصر وليبيا وتونس ! , مسحت على جهلها بيدي بلطف,

لا يا زوجتي , لم يحدث في روسيا ثورة , الذي حدث هو تصحيح في التاريخ , أومأت برأسها متمعنة , قدمت ثوبا مكويا وشماغا منشاة كأنها جسر مشاة , شكرت عملها , أثنيت على وقوفها المستمر في كفاح اللقمة , لكنها ظلت تتساءل : وش معنى التصحيح ؟ , أخرجت عقلها ونفثت عليه , أعدته وأنا أتلو: يا أيتها النفس المطمئنة , عودي الى ربك راضية مرضية , نظرت ببلاهة , خاطبتها : بروك هل سيغير من حياتك شئ الآن لو فهمتِ ؟ , أجابت : لا , قلت : اذن لا تشغلي عقلك بهذه الأشياء . وصل السواق المخادع أبو علي , وحين رآني قال : ما شاء الله عليك ساكن بشقة ؟ , وأين تريدني أسكن يا أبا علي ؟ جحر , خيمة ؟ شقة مستأجرة بالطبع , كان ذلك طرف الخيط الذي هبط له من السماء السابعة , بدأ ينسج أحابيله في التذمر ليجعلني أتفوه بما يديننني , تحدث عن غلاء أسعار الشقق , غلاء الأراضي , كيف لو أراد انسان الضعوي أن يعمر أرضا أو يبني مسكنا , لظل طوال عمره أسير الديون , كانت أحابيله تتكاثر كديدان صغيرة لا تلبث أن تصبح ثعابينا ضخمة , فأخرجت عصا الحيلة والمداهنة فاذا هي تلقف ما يأ فكون , أخرجت مسدسي كاتم الصوت , أطلقت طلقتين على حيله وأحابيله فرأيتها تتخبط بدمائها على الاسفلت , كل ذلك حين قلت : فلنحمد الله يا أبا علي على نعمة الأمن والأمان , صمت على مضض , وهو ينظر الى أبنائه يتضرجون بدمائهم , هكذا خلقت , اذا ما عدو مدّ الي يدا , سبقته يد فرّاسة وفم . كانت الشوارع تزدحم بمئات الآلاف من السيارات , لا شك أن رجال الضعوي يقضون نصف أعمارهم خلف المقود في هذه المدينة الكئيبة بالذات , بدأ أبو علي يتململ من الزحمة , رمى آخر سهم في كنانته , لا أعرف متى يجدون حلا في هذا الإزدحام , تطلعت الى وجهه , قلت : أبا علي , أرح شياطينك , لا تجعل يومها داميا , احقن دمائها , ألا ترى حربتي تسيل منها الدماء ؟ لن أتكلم بكلمة واحدة عن الأوضاع . جمع أبو علي هزائمه ووضعها في محفظته , يحدث نفسه , كيف لي أن آخذ من فمه شيئا لأضعه في أذن المدير ؟ , قلت : لن تجد يا أبا علي , استغرب مني , قال : ما أدراك عن حديثي لنفسي , قلت : ألم يردك نبأ أني أنا المؤلف وأنا القرم الكريم أعتو على من عتا , صمت , نظر الى الطريق الطويل , خرجنا الى خارج المدينة المزدحمة , نظرت خلفي كانت غمامة سوداء تكفن سماء المدينة من عوادم السيارات والشاحنات والمصانع , عدلت شماغي , أحكمت عقالي , لمسة أخيرة من مرآة السيارة , رأيت صغار العفاريت يلعبون الكرة في الأراضي الجرداء الشاسعة المحاطة با لشبوك والأسوار واللوحات المحذرة من الاقتراب , همست اللهم (ادخلني مدخل صدق , واخرجني مخرج صدق واجعل

لي من لدنك سلطانا نصيرا) , وصلنا الى الاستراحة الفاخرة , كانت سيارات فارهة تصطف على جانب الاستراحة , حاول أبو علي أن يبعث الحياة في شياطينه : الذي أعطاهم بالكريك (مقياس ما) يعطينا فقط برأس الملعقة (مقياس ما) , تجاهلت كليماته , نزلت من السيارة , عبرت ممر الرخام الحجري الى بهو الاستراحة , لمحت صورتي تنعكس في المرايا , كل شئ عال العال , لحقت على الركعة الأخيرة من صلاة العشاء , الامام كان مديري (أبو نايف) , من يجرؤ أن يأم الناس في وجود التقى والصلاح , حين أنهيت الصلاة , بدأت جولة من السلام على الحاضرين , , بعضهم من الإدارة كالمنافق حامد , والمتملق غصن , بعضهم ممن نشاهده في وسائل الاعلام بعضهم من لا نشاهده الا في الأحلام , تكمن مشاكلنا في الضعوي أننا نعرف الوزراء جيداً , بيد أنهم لا يعرفوننا , كان المضيف الشاب المترجم يرحب بالموجودين , ينتقل من مكان الى آخر , يعطي أوامره الى المخدِّمين , ما أن رآني حتى انشق فمه عن ابتسامة كبيرة كحرف O, احتضنني بقوة , أمسك بيدي , سحبني الى رجل عجوز , أشيب الرأس , يضع نظارة طبية , قال الشاب الأصلع المترجم : هذا هو المترجم الحقيقي يا مؤلف , اترككما معا , سلمت على المصري , الذي رد بصوت خفيض : أهلا , أهلا , حضرتك كتبت ملاحظاتك عن (ثورة روسيا) , قلت له : أبدا , أنا لا أفهم الا في (ثورة الشك) , وما ذلك الا حسن ظن من المدير ومن الشاب المترجم . كان مصريا مثقفا , عمل ملحقا ثقافيا في روسيا أيام عبد الناصر وعبد الحكيم عامر والأسود والأبيض , بدأ يتحدث عن الفلاحين الروس والبروليتاريا والنخب المثقفة وتأثير ذلك في النهوض السريع للسوفييت لتصبح قوة عظمى في ظرف خمسين عاما , ذلك ما لم تحققه الرأسمالية الا في مئات السنين .... ظل يتحدث بحماس , يقارن بين روسيا والشعوب العربية , فاجأته بسؤال : ما الذي يجعل رجلا مثقفا مثلك يبيع خلاصة عقله وتجاربه الى شاب تافه جاهل مثل هذا ؟ , أعاد وضع نظارته , رمقني ببصره , قال : لو أنا كتبت الكتاب دا , مين حينشره , وكام في المقابل اكسب من ورائه ؟ , قلت : ولو هذه أمانة , أضاف : يا سيدي الأمانة , احنا بعناها من زمان , الولد أعطاني عشرين ألف درهم , ولو نشرته باسمي مش حأ حصّل ربع المبلغ دا , العمر بقي فيه ايه والا ايه ؟ , تفهمت منطقه , قدرت ظرفه , قلت : معك كل الحق , كم من شعراء باعوا قصائدهم , كم من مؤلفين باعوا مؤلفاتهم , هل تعلم في بلاد الضعوي , تستطيع أن تستأجر باحثين ليكتبوا رسائل الماجستير والدكتوراة بالنيابة عنك , هل تعلم أن نصف الوزراء الذين يتقلدون المناصب شهاداتهم مزورة , تهللت اساريره وقال بصوت مرتفع نسبيا

: عليك نور .... عليك نور , خشيت معها أن يحضر مندوب شركة الكهرباء ويطالب بتسديد فاتورة جسدي .

كانت الاستراحة واسعة بها أجنحة فاخرة , فهناك بيت شَعر مسوبع (سباعي الأطناب) سرق من حاتم الطائي في آخر ظهور له قبل أن يذبح حصانه أو ابنه للأضياف , هناك صالة ضخمة , للغرابة يتربع بها ركن صغير , على شكل دائري , لم أعرف ما فائدته الا فيما بعد , كان الشاب مضيافا , خيّر الضيوف بالجلوس في الصالة أو في بيت الشعر أو في الحديقة , الجو لم يكن باردا , أشار أغلبهم الى الحديقة , فرشت الفرش , وضع منقل فحم ضخم يلتهب , دارت فناجين القهوة والأحاديث , تصدر مديري القذر دائرة الحدث , أمسك بزمام السوالف والقصائد , لم يترك مجالا لأحد , سرد من بطولاته , مغامراته , طفولته , شبابه , دراساته , سفرياته , نصائحه الى زعماء العالم , لقاءه مع بيل كلينتون , سفره مع محمد علي (الملاكم) بطائرة , طرده لبن اليعازر في مجلس الأمم المتحدة , لأن كل الموجودين يعرفون أنه كذاب , اعتادوا على سوالفه السمجة التي يرددها مئات المرات , في كل مرة ينبري أحد المنافقين , بهذا المطلع : بالله يا بو نايف , قل لنا سالفة ... أو سالفتك مع مونيكا لوينسكي , سالفتك مع مدير CIA , أو قصة هروبك من سجون صدام , أو قصيدتك ردا على ابن عبطان , هكذا , لم ينقذنا منه الا حضور العشاء الفاخر من الخرفان المطبوخة والجديان المشوية ولحم طير مما يشتهون , كانت هناك علاقة بين المترجم الشاب ومديري القذر لم تتبين ملامحها لي , بعد العشاء دارت القهوة والشاي مرات ومرات , جلست بجانب المصري , فهمت الفكرة التي يريد ايصالها , جاء مديري تداخل بثقافته الضحلة , اشار الى بنود معينة تحتاج الى مراجعة , في نهاية المطاف رغب أن يظهر اسمي على الكتاب , تحت مسمى مراجعة المؤلف (أنا) , قلت : يا سعادة المدير , الكتاب جهد الإخوان , لا أريد أن أسرق جهودهم , كعادته بإظهار النبل الماكر , هذا حق من حقوقك الفكرية , ضحكت في سري , وحق المصري المسكين , أين ذهب ؟ , يا لصوص الفكر والثقافة , كانت الخطوط العريضة شبه مكتملة لكتاب ليون تروتسكي بنسخته الضعوية الفائقة التزوير , كانت الساعات تجري والليل ينصرم , استأذنت من الشاب المترجم ومن مديري , حييت من تبقى من الضيوف من علية القوم (تصبحون على خير) , كان أبو علي يغفو في سيارته , رائحة بقية الأكل والحلوي تعبق في السيارة , أبو علي يا لذيب سرينا , وذا العين جاها بلاها (ولي كبد مقروحة من يبادلني بها كبدا ليست بذات قروح) , تثاءب أبو علي , أطلق تغريدتين أو ثلاثا نشرت بالوعة

معدته , فتحت زجاج السيارة , قال : برد يا مؤلف , برد شديد , اغلق الزجاج . قلت : أبو علي , نموت بالبرد , ولا نموت اختناقا بالغازات السامة , بحث أبو علي عن مصائد المغفلين التي يضعها في تقريره الصباحي بأذن المدير القذر , تحدث عن كثرة الأكل والنعمة التي ستهاجر الى مكب النفايات في هذه الوليمة المسرفة حد البذخ , قرأ آيات عن الاسراف أخطأ بها كالعادة , تحدث عن الفقراء الذين لا يجدون عشاءهم في الضعوي , أخرجت مسواكي , أشرت له : أبا علي , انظر , انظر , فإذا ثعبان ضخم يطلق لهبا من فمه , يتأهب لإلتهام سحالي وضفادع العجوز , هذا مصير بناتك وأبنائك من الخداع , فبالله عليك , اجعل ختام هذا اليوم مسكا وكافورا , لا تجعلني ارتكب حماقة , ومجزرة دموية , صمت أبو علي , وحين اقتربنا من منزلي رمى بطائرة ورقية من خداعه اللانهائي : لماذا انصرفت باكرا , يا مؤلف , قد تكون حرمت من السهرة ؟ , قلت : وما ذا تكون السهرة , الا مداخلات (أبو نايف) على وزير خارجية أمريكا , وساطته لتحرير الأسرى الفلسطينيين , بصقه على اردوغان , طرده لسارة بايللين , ومن ذلك , ضحك أبو علي , قال : لا , لا , فاتت عليك السيارات المظللة ,,, يا هل ترى , هي إحدى أفاعي (أبو علي) , أم إحدى سهرات المدير القذر الماجنة التي يتحدثون عنها ؟ , تضعضع ثعباني المضاد للخدع , ارتبك للحظة , كاد أن يسقط ويضعه أبو علي بجيبه , وفي آخر لحظة , قلت بصوت ضعيف : إن بعض الظن إثم , فسقط أبو علي على الأرض , يصيح ويبكي ويشد شعره ويستغشي ثيابه , ... بدأ يجمع ثعابينه وضفادعه وسحلياته المصابة ويضعها في شنطة السيارة , ساعدته في مهمته , مسحت دموعه , حذرته أن يعود لتلك الأفعال الرعناء , والا سيبقى أرملا مدى حياته .

دخلت المنزل , الجميع نائمون , فتحت الغرف على أبنائي المراهقين , لم يشعروا بدخولي , كانوا يسافرون مع أحلامهم , أي مستقبل ينتظركم يا أبنائي , أحسست بشفقة عليهم , ضممت العالم البائس الى صدري , مسحت دموع اليتامى والثكالى والأرامل , شعور طاغ يهاجمني في بعض الأحيان , شعور بالحزن والشفقة , آه ليت لي قدرة كتابة هذا الشعور , لصافحتكم الذئاب في الشوارع يا بؤساء الضعوي ... اتحدوا

الفصل الثامن / الاستعداد لحدث جلل

(الاحسان أن تصون وجه السائل عن ماء المذلة)

في اليوم التالي , الهمهمات تسري بين الموظفين , (المدير مزاجه سيء , هذا الصباح) , (لم يأذن لأحد بالدخول عليه , الا عامل القهوة) ..., يقال أن عينيه محمرتان , تطلقان شررا منكرا, المدير القذر (أبو نايف) , يا هل ترى , ماذا فعلت أيها العجوز في ليلتك تلك من المخازي , يبدو أن تلميح (أبو علي) في مكانه , لا يعنيني سلوكه الشخصي , يجب أن أنافق بطريقة مبتكرة , نفاق لا يخطر على قلب أحد نفاق لم يسبق به أحد من البشر , تمنيت أن أهدي للمدير القذر هدية ثمينة تجعله ينصفني على أقل تقدير , لكن ذلك سيؤثر على ميزانيتي المنهارة أصلا من الايجار وتكاليف الحياة , الهدية ستفتح لي باب الانتدابات , يلوح (أبو نايف) بهذه الورقة : (اليوم سأضع الأسماء , سأجتمع مع مدير الموظفين , هناك خير سيكفي الجميع , الكفاءة هي معيار الترشيح , الانتدابات لحل مشاكل البلد , الانتدابات لتوثيق أواصر التعاون مع الأشقاء والأصدقاء , ليست لمصلحة الموظفين) , نحن نعرف , تلك الأواصر التي يريد أبو نايف تعزيزها مع الدول الصديقة , أنها أواصر الكأس والـــ.... , تجعل شر عصابة تجرر أذيال الفسوق ولا فخر , انتداباته يصبها لجيب المنافق حامد وذلك القذر غصن , حزمت آمالي , القيت بها مهاوي الردى , فلن يذهب الا أبو نايف وندمائه وأصفيائه من الإدارة , الكفاءة ومصلحة البلد وتوثيق الأواصر , هو يعرف أنها للاستهلاك , ذر الرماد في عيون السذّج , قبعة الساحر التي يخرج منها أرانبه , هو يعرف , ونحن أيضا نعرف , في الضعوي , ترى حقك يسلب أمامك , ايضا تصمت , فدائرة الشكاوى , والتظلمات تدور ببطء شديد , قد ينصفوك , لكنهم في المقابل يحيلونك على التقاعد أو ينغصون عليك عيشك , كثرت الشكوى في الأحياء الفقيرة , كثرت الشكوى من الغلاء , كثرت الشكوى من التخلف , من النهب , من السلب , كثرت الشكوى من الأحبة وبين الأخلاء والأزواج , الشكوى هي ميزة أناس الضعوي , نادرا تجد من لا يشكو , لو تقابل رجلا عرض الطريق , لم يسبق لك رؤياه , إن لم تبادره بالشكوى سيعمد هو لذلك , حتى ذلك الفنان القديم , غنى أغنية من ستين عاما , لا زالت تُسمع مع سائقي الأجرة , في صوالين الحلاقين , مع جماهير الأندية , في بيوت العوانس والمطلقات , (أشكي على ما جرالي ياهلي ...وألذّ شكوى عاشق ما أعلنا) .

شددت المئزر , قرأت شعرا في المديح الكاذب , سمعت توصيات بروك شيلدز , قالت : لاطفه , حتى يفرجها ربنا , ونبني بيتا لنا , قلت : أعيدي بالله , فقالت : بيتا . يا رحمة لك يا زوجي العزيز , أهون علي أن أنحت لكم من الصخر بيتا , ومن أعشاش الطيور عشا , على أن أبني لكم أو أشتري بيتا في الضعوي , ألم تسمع بغلاء الأراضي , تغوّل التجار , نوم المسئولين , الانفجار السكاني , كل المصائب تلك , وتريدين بيتا , اسأل الله أن يمنحنا بيتا في الجنة , أما ما في يد البشر , فقد يئست , أشارت جهة التلفاز : انظر , الا ترى وزير الاسكان , والمالية يجتمعون ؟ , الحق اني قد أغلقت عيني عن وسائل الاعلام منذ وفاة الرجل الصالح , صممت أذني عن المسئولين في الضعوي , ليس يأسا فحسب , لكني ضنين بالتلفزيون , كسرت واحدا من قبل , لا أرغب بكسر هذا , فأسعارها ككل الأشياء تعلو أبد الدهر .

خرجت من منزلي , ميمما صوب مكتب أبي ظافر لتوقيع عقد الايجار الجديد , بينما كان أناس الضعوي يحملون تلفزوناتهم الى المصلّحين (بشر يتعلمون لدينا إصلاح الأجهزة الكهربائية التي لا توجد لديهم , ثم يخبرونك أنها لا تصلح ليشتروها) , عبرت معارك الطريق في الضعوي بسلام , لأبدأ المعركة الكبرى مع أبي ظافر , رأيت متسولا عند باب المكتب , رحمته , كان شيخا مسنّا , وضع أمامه طفلا صغيرا مرقع الثياب , حول أنفه وفمه تتنزه مجموعة من الذباب, يمسك بيده قطعة بسكويت منتهية الصلاحية (قرأت تاريخ الصلاحية بطريقتي) , رفع العجوز نظره الي بانكسار , تطلع الولد قذر الثياب ناحيتي , وضعت يدي في جيبي , حتى لا تعلم شمالي ما أنفقت يميني , حريص على أن أخرج درهما أو درهمين , تطلع الولد بوقاحة الى جيبي , من حسن حظهم خرجت خمسة دراهم , رزقهم وما يوعدون , وضعتها في الشوال الممتلئ عن آخره بالدراهم من كل الفئات , أرسل العجوز نظرة ازدراء غريبة , وقحون هم المتسولون في الضعوي لا يرضيهم القليل , لا يرضيهم الا أن يضع يده في جيبك ثم يختار مايريد , ويترك لك اليسير , ثم يجب عليك أن تشكره .

استقبلني أبو ظافر بترحيبه المعهود (مرحباً مليون) , قلت أبا ظافر يكفيني واحدة فقط , أعاد أبو ظافر بقية المليون , فكل شئ عنده محسوب بدقة , قام

عامله بتقديم القهوة , رفضتها , فلا يجمع الله علي مصيبة الحموضة , وتوقيع معاهدة الاستسلام لأبي ظافر , مكتبه كان يوجد به رجلان آخران عليهما ملامح الثراء , يمكن أن يكونا من تجار العقار أو أصحاب المكاتب القريبة منه , فالطيور على أشباهها تقع , تضاحك أبو ظافر , حاول أن يلطف الجو الحزين لمعاهدة التسليم بقضاء الله وقدره , تحدث عن طيبته , استشهد بأحد الرجلين : أبو سعيد , قله , كم تؤجر عمارتك ؟ , قال أحد الرجلين : عليّ الحرام , ما عاد أقبل بأقل من ثلاث آلاف درهم في الشهر ! , تنبأت بهذا السيناريو الذي يحوكه بنو النضير على المغبونين من أبناء الضعوي : أبو ظافر , هل لا زلت على الاتفاق أم ماذا ؟ , أظهر الطيبة وضحك : ايش مالك , يفداك الايجار يا بن الحلال ؟ , كعادتي بحفظ كليشيهات الضعوي التي لا تنبئ عن النوايا الحقيقية , أجبت : يفداك اللاش يا بو ظافر ...(ثكلتك أمك يا صعصعة .. مرةً أخرى) , تشاغل أبو ظافر بأوراق العقد يقرأها , حركة منه , فهو يحفظها أكثر من اسمه , فاجأته : أبو ظافر , أين الأنابيب , والخراطيم , والمصاصات ؟ , استغرب سؤالي , رفع أصابعه بحركة استفهام ولف بها عكس عقارب الساعة , أكملت : الأنابيب التي توصلها الى شراييني لتمتص من دمي , ضحك أبو ظافر كما تفعل التماسيح عندما تكشر عن أنيابها , فلا تعرف هل تضحك أم تتأهب لافتراس ضحاياها . قال : ايش قومك اليوم يا (مؤلف) ؟ رددت : لا قومي ولا قومك , أعطني صك الاستسلام لأوقعه لك . دفع العقد المكون من صفحتين , وقعت مغبونا أيما غبن , لا حظت زيادة تقريبا أربعمائة درهم , سألته : أبو ظافر , اتفاقنا ألفي درهم , ما هذه الأربعمئة المضافة ؟ , أجاب : هذه رسوم المكتب , رسوم ادارية كما تعلم . قلت : لا حول ولا قوة الا بالله يا أبا ظافر , هل سبق لك معرفة نتنياهو أو جورج دبليو بوش ؟ قال بجدية : لا والله اسمع عنهم فقط , وضع أبو ظافر الأوراق في درج مكتبه الملئ بمعاهدات الخضوع . تحدث عن نهاية العام , في هذا العام يمكن نزوج ظافر يا مؤلف , خفق قلبي بشدة , فإن أبا ظافر حين يريد طرد مستأجر يقول تلك العبارة . قلت : أبا ظافر قد قلت هذه العبارة منذ خمسة أعوام ولم تزوجه ولا يحزنون . قال : صحيح , لكن ظافر بالجيش , والسنة هذه يتخرج . فهمت تلميحه , زواج ظافر يعني تقويض حياة شخص آخر , وإخراجه من منزله , تهديده هذا سمعته من المستأجرين الآخرين , اذا قابلت ظافر سأقنعه بخبرتي أن لا يتزوج , تحدثت قليلا مع أبي ظافر ومصاصي الدماء الذين يجلسون في مكتبه , وأنا أتأهب للخروج , قال مستفهما: لا تكون أعطيت الشحاذ نقودا ؟ , أجبت : بلى , قد فعلت , ضحك مني وضحك مصاص الدماء الآخر (أبو سعيد) وابتسم مصاص الدم

الآخر , لا أرغب بمعرفة اسمه , استهجنت ضحكهم : لم هذا الضحك يا أبا ظافر , هل الاحسان الى البشر , مجلبة للاستهزاء , قال : معاذ الله , يا (مؤلف) , لكن ها لشايب الذي تراه , لديه ثلاث عمارات مؤجرة وسوبر ماركت , وبناته مدرسات , هذا نصاب . حنقت على العجوز المتسول وابنه قذر الثياب الذي تتنزه الحشرات على أنفه ذهابا وايابا , عندما خرجت , نظرت له نظرة احتقار كبيرة , حاولت أن أجعلها حامية , حارقة ما استطعت , لويت بوزي , بصقت قريبا منه , أردت أن أمد يدي , وآخذ عشرة دراهم , جزاء وردعا له , لكن سوء البشر الآخرين , جعلني أغضي عنه .

درجت الاولدزومبيل , عرفت ماذا تريد , وجهتها شمالا , زغردت عجلاتها على اسفلت المدينة المخادعة , عاهرة الأجناس المختلطة , عجوز شمطاء امتهنت السحر في أواخر سنيها , تضحك لك , ثم تغمد في صدرك خنجرها , الملل , اليأس , الفقر , النفاق , طوبى للبادية , طوبى لمن يفر من تلك الشمطاء بجلده , ليتني في البراري أرعى غنمي , لا تداخلني هذي الحضارة التي تمزق النفوس بخير أو شر , الوجوه تتلاشى من ذاكرتي , وجوه النفاق الوظيفي , النكد الزوجي , النكد الاجتماعي , بني النضير الأوباش , زمرة الموظفين الحقراء , قبضت قبضة من تراب , ذروتها في الريح , شاهت الوجوه , وجوه النفاق اللامنتهي , الأولدزومبيل تصغي لي وأصغي لها , بحثنا عن ثالثنا , فتشت في جعبة الأشرطة لعل صدى تلك الأغنيات الراحلة يعيد حنينا يضمحل , يتقافز العفاريت قرب زجاج السيارة , لقد اقتربتم كثيرا يا ملاعين .

وصلت الى مخيم المدير ابن ماء السماء , يتجمهر آلاف من مواطني الضعوي الذين يسترفدون , يستعطفون , يتسولون , فرصة طيبة للأخوياء أن يمارسوا الضرب بعصيهم , فرصة لمن لم يجرب التلويح بالعصا , كان الأخوياء , يحملون الهراوات , يلوحون بها للتخويف , يندفع الأعراب , يبدأ الأخوياء بضربهم , يعودون الى مكان احتجازهم ثم يعاودون الكرة وتنهال العصي على ظهورهم لم ييأسوا ولم يكل الأخوياء من الهاب ظهورهم بالعصي , هكذا حتى سقطت الكرامة مغشيا عليها , حاولت انعاشها , أشارت لي , دعني يا مؤلف الموت أستر لي . نصب صيوان كبير , أضيئت الأنوار , زواج المدير ابن ماء السماء من بنت أحد

مشايخ القبائل العريقة , أحضرها هدية , بعد أن اكتشف رئيس الخويا هذه الفتاة قريبا من المحمية , يتميز رئيس الخويا باكتشاف المواهب الناشئة التي تليق بالمدير ابن ماء السماء , من اكتشاف كولومبس , لم يظهر مكتشفون مثل رئيس الخويا في اكتشاف الأراضي وتشبيكها والفتيات وتشبيكهن أيضا , أبوها يرى أن هذا الزواج شرفا مؤثلا , أنا أراه نخاسة وللناس فيما يرون مذاهب , زغردت الصحف , هللت الفضائيات لزواج القرن , رأيت صاحبنا صعلوك الزمن الردئ , لبس وشيا مقصبا , بدت عليه آثار النعماء , تقف خلفه متأنقة الكلاب السلوقية بنظاراتها الشمسية وعطورها الباريسية , حييته من بعيد , كان رسميا , لم يرد على تحيتي , لم يرني أكيد , أصبحت مثل بؤساء الضعوي اذا عرف مسئولا كبيرا يحرجه بكثر التحيات , الطيور أخذت مواقعها , حتى الغزلان والأرانب المستوردة مدت أعناقها تنتظر اشارة بدء الحفل من يد رئيس الخويا المتسلط .

ظهر رئيس الخويا بأنفه المدبب وعصاه التي طالما غنت على ظهور البشر , أشار الى الشعراء , تقدموا بقصائدهم وأكاذيبهم في مدح رجل لا يعرفون الا اسمه وصورته في الصحف , أشار لهم رئيس الخويا , حضروا بين يديه , أخرج من رزم الدراهم , رماها في وجوههم ولا كرامة , اشار لبعض مرافقيه من الخويا , أحضر بعض المتسولين , أهووا لتقبيل قدميه , حاول أن يمنعهم , أشار لهم , ليس أنا , احتفظوا بقبلاتكم للمدير ابن ماء السماء , لكنهم يصرون , أخيرا سمح لهم , رمى بصرر المال المربوطة , بدأوا يتزاحمون على الأرض , ضحك عليهم , اقترب بعض الأخوياء المستجدين , قاموا بضربهم بعصي جديدة , حتى لا يحدثوا فوضى , أشار رئيس الخويا الى بدء مسابقة النباح الدولية .

نبح الشعراء , نبح الأعراب , نبحت الكلاب , نبحت الطير , الكل ينبح , صنيتان شارك بالنباح , لكن لم يحالفه الحظ , فاز طرطار بجائزة النباح الدولية الكبرى , ضحكت كثيرا , أمسكت بطني للتهريج والضحك الذي كاد أن يمزقها . ظهر المدير الصغير قبل النهاية , احتفلوا بزفافه التاريخي , تبارى الراقصون والعازفون , أدخلوه الى زوجته , خرج بعد أداء المهمة , أحضر شيخا , قام بطلاقها , أحضر أباها بصق بوجهه بصقة كبيرة , أعطاه شيكا , خرجت الفتاة مع أبيها فرحة مستبشرة , بحثت عن صنيتان , وجدته يأخذ من عطور السلوقيات , يعبئ حقيبته

, قلت : صنيتان : لم لا تتوب عن السرقة ؟ , فؤجئ بدخولي عليه : آه المؤلف , هذه عطور فاخرة سأهديها الى غزيّل , الاسبوع القادم سأخطبها . قلت : على بركة الله , ما دمت مصرّا , لم لا تنتظر , قد أزوجك أفضل منها في الرواية القادمة , قال : لا أرغب , زوج نفسك اذا تستطيع , يصعب أحيانا أن تقنع قردا بأن موزته التي أختارها فاسدة .

خرجت مع صنيتان , يحمل غنائمه من الدراهم والعطور , ذهب الى بيته , اشترى لأمه وأخته بعض الملابس , احضر طعاما , جلسوا على الحصير الذي هجره الدهر بعد أن لعب عليه العرضة , والمزمار سنينا طويلة , فاتح صنيتان أمه , واخته عزمه على خطبة غزيّل بطريقة رسمية , اشارت له أمه : خذ معك عمك حربش . لم يكن هذا عم صنيتان , انما عم أبوه , عجوز يقارب الثمانين وما سئم الحياة , اختفى عن قائمة ملك الموت زمنا ليس باليسير , جعبة متحركة من أمراض العصر والعصر الذي يليه , سكري , ضغط , شلل رعاشي , خرف (زهايمر) , داء فيروس الكبد ABCDEF الثلاثي والرباعي والخماسي الخ , طرق صنيتان باب بيت عمه , لم يرد أحد , دخل الى البيت , وجد عمه نائما على نفسه , جمعه على بعضه , حمله الى الهايلوكس , رمى به على مرتبة السيارة , استغربت لم يستيقظ العجوز , خاطبته : صنيتان , هل أنت متأكد , أنه لن يموت بالطريق . قال : اذكر الله يا مؤلف , الشايب , هذا نجا من خمسة حروب وثلاثة زلازل وسبعة انفجارات , لن يموت قبل أن يخطب لي .

الفصل التاسع / في وكر الفساد

(ليس أعداؤنا المجرمين البسطاء , بل الأذكياء الفاسدون)

تحركت الهايلوكس , أمسكت صنيتان : لا تسرع يا صنيتان , لا يمكن لي أن أسابقك على البراري , سيارتي عجوز كركوبة , ,أنا غير معتاد على الصحاري , طمأنني : لا تخف يا مؤلف , عمي أيضا لا يحتمل السرعة قد يسقط مني , توكلنا على الله , ركبت العفاريت على المرتبة الخلفية , ربطوا حزام الأمان الذي لايوجد الا في عقلي , التفت لهم : انزلوا يا أوباش , لن تسير السيارة وأنتم معي , انزلوا , والا سأضع شريط المنشاوي , تضاحكوا , قال عفريت كبير السن , له أظلاف ماعز : أنت ذاهب لزواجه أو جنازة , بحثت عن شريط الشيخ المنشاوي , نفضته , وأنا أدعو ربي أن يشتغل , وضعته وما أن بدأ يقرأ , حتى تساقط الأشرار ولهم صراخ وضراط . سابقت الريح كي الحق بصديقي في خطبته لمحبوبته بطريقة رسمية , لم يسرع صنيتان , لكنه توقف فجأة , أنزل العجوز ليبول , كل عشرة كيلو مترات , ينزل العجوز يبول ثم يعود للنوم , رأيت ملّوح خال صنيتان يبيع لشباب من الضعوي شيئا مغلفا , ما أن شاهدنا حتى امتقع لونه , حدثت صنيتان : خالك , يبدو أنه لم يترك مهنته القديمة , ذيل الكلب لن يعتدل , كأنما لم يسمعني صنيتان أو لا يرغب أن يسمعني , أعدت مرة أخرى : صنيتان خالك يروج حبوب الهلوسة , لماذا لا تنصحه , هذا طريق مظلم , كأنما لم يتعظ من سجنه السابق ؟ , للمرة الثانية , أمسكت به : صنيتان , أنت ما تسمعني ؟ , قال : بلى , أسمعك , لكن ستتفاجأ بمن يزوده بالحبوب , لذلك يا مؤلف , عض على شحم (اخرس بطريقة مؤدبة) , صمتُ , في نفسي شئ من الألم , شباب الضعوي الا القلة اجتاحهم هذا الوباء الخطير , لكن الروائيين لا يستطيعون تغيير الحال , لو حكم روائي بلاد الضعوي , ربما وضع مواطنيه في السجن , او أخرجهم منه .

سبقنا العم ملّوح , كالعادة , تنحنح , غمز بعينه لصالح , فهم صالح الحركة التي تتكرر كلما يأتي ضيف , ركض صالح لحوش الغنم , الخروف الأملح , خرج بارادته هذه المرة , يبتسم ليؤدي دوره المتفق عليه , أحضر بنفسه السكين الحاد أعطاه ملّوح , انتظر نهاية المسرحية , يقهقه , صرخ صنيتان : والله ما تذبحه , رد ملوح : والله ان يموت ... يعني يموت , كرامة لحربش , كان حربش يواصل نومه , شخيره يعلو بينما كانت روح بريئة ستزهق بسببه , ارتعب الخروف , فربما لن تنجح الحيلة هذه المرة , أمسك عن الضحك , اشار الخروف لصنيتان : أيقظ عمك الحمار هذا , قبل أن تروح الروح , اقترب ملوح من الخروف أضجعه أرضا , أمسك صالح بقدميه , أيقظ صنيتان حربش بصعوبة , حبى ناحية ملّوح وأمسك بيده : اسمع , أنا لا آكل اللحم بسبب الكوليسترول , ما أن أكمل جملته

حتى سقط نائما بقربهم , أطلق ملّوح الخروف , نهض وله ثغاء , عاد للحوش , هنأته الغنم على النجاة , نظر ناحيتي , حذرته : سيذبحونك المرة القادمة , في العرس , اذا لم تتصرف , تساعد نفسك , فلن استطيع مد يد المساعدة كل مرة , أمّنت على كلامي الخرفان , اجتمعوا ليعدوا خطة للهروب , أفشلت مخططهم , مزقت آمالهم : أين تهربوا , من سيقدم لكم العلف والشعير والتبن والماء ومستلزمات العيش . اسقط في أيدي الغنم , يتصايحون ويتباكون , شعرت بعطف على الخرفان , كنت أود أن أجعلهم يهربون , يأكلون من خشاش الأرض , أن يعيشوا خرفانا حرة طليقة , بيد أن الأرض مقحلة , قفر , لم تمطر من سني الغربة , على أية حال سيموتون أما جوعا أو نهشا من متوحشي الضعوي .

رجعت لصنيتان يحاول أن يوقظ عمه دون فائدة , قال صنيتان : يا خالي , أنا أخطب غزيّل وموافق على شروطكم , بأن تظل تخدمك أنت وصالح , لكن ارحلوا قريبا من بلدتنا , جئت بعمي حربش ليخطب لي , نظر ملّوح الى الشايب النائم ,: لم يكن هناك داع لحضوره , لكن يا خالي (تدليع لصنيتان) , غزيّل ليست رخيصة , نريد ثلاثين ألف درهم , وعشرة آلاف للذهب , زواجها في قصر أفراح معتبر من خمسة نجوم . غضبت على ملوح الاستغلالي , كيف يستغل صنيتان بإ مرأة مثل غزيّل نصف عمر , رفعت حواجبي لصنيتان بمعنى ارفض , رأيته يمد يده لخاله موافقا , يتحدث عن الذهاب للشيخ لكتابة عقد الزواج , شعرت بحزن شديد , نوعية غزيّل تقوّض الرومانسية على رأس صاحبي , ستكون ندبة في خياله عن النساء , أخرجت كراسة أجمل النساء في الضعوي , كراستي التي أهدتني اياها أم راكان الخطابة حين أردت الفرار من قبضة بروك شيلدز , أريته الصور , فتيات بعمر الزهور , جامعيات , ممرضات , موظفات بنوك , مديرات قذرات (ارتبطت كلمة مدير قذر بكل شئ في حياتي) , اشاح بوجهه عني , ذكرته بالرشاش في سيارتها الجمس الأحمر موديل 80 , ذكرته بهجومها على البنغال بائعي العلف , كيف كادت أن تفتك بهم , ذكرته كيف يتحاشاها أهل السوق , ذكرته بضربها لزوجها السابق , كيف قضى بالعناية المركزة يومين , قاطعني : يا مؤلف , رجاء , لا تتدخل بحياتي الخاصة , حمل صنيتان عمه النائم , رمى به في السيارة , عاد ليودع خاله , يختلس نظرة لغزيل , حاول أن يتعلل بحجج عن ماء لرديتر السيارة , لم يشف غليله , لم تخرج من خبائها , تمثل دور الحياء الذي لا يليق الا بالعذارى الرقيقات .

طالعت ساعتي , علي أن أوقف الساعة توفيرا للوقت , الأحداث تتسارع , عدت الى منزلي كئيبا , مرهقا , أرادت (دراكولا) أن تلعب لعبة الغول والأميرة , قلت اليوم يادراكولاي العزيزة , أبوك لا يرقى أن يكون غولا , هل تريدين أن نلعب لعبة القرد والأميرة , أصرت وهتفت بصوت ضاحك (انقذوني) , قلت : بل أنتم انقذوني من حياتي البائسة , جاءت بروك ,مؤنبة : لم لا تلعب معها , بقيت تنتظرك وقتا طويلا , شرحت لها ارهاقي , يأسي من الحياة , الظلام الذي يستوطن روحي , شئ غامض يطبق على أنفاسي يا بروك , لأول مرة نظرت ناحيتي بعطف : استعذ بالله من الشيطان الرجيم , هل تريد أن نخرج نتعشى بالخارج ؟ , قلت : أنت تريدين تقضين علي ولا شك . ابتسمت , قالت : طيب , الذي تريده , قلت : أريد أن أموت , شهقت بقوة : وش تقول , يا مؤلف ؟ بعيد الشر , عنك . لم أكن من النوع الذي ينساق للعواطف لكني حزين على نفسي . هل ترغب أن أتصل على (أبو يوسف) , رفعت يدي : هذه اذن محاولة اغتيال مكتملة الأركان.

استسلمت للنوم , هذه المرة لم اقرأ أذكاري , أنا لم أعد أخشَى السكتة القلبية في نومي , هذا الكابوس طاردني من خمسة عشر عاما , كل يوم أنا أموت قبل موتي , آن أن ينتهي , سهول ومروج خضراء تمتد أمامي , يد النسيان لن تمحوك من ذاكرتي , بحثت عن خالي , يرتدي ثيابا بيضاء , هش بوجهي , تعال هنا , تساءلت : الحمد لله , يا خالي , أجل أنت لم تمت , كيف يكذبون علي ؟ , ضحك , اشار لي : تعال , اجلس بقربي . جلست بجانب خالي , كأنما عدت طفلا صغيرا , مسح على جبيني , قلت : سامحني يا خالي , أنا قصّرت في حقك . ابتسم , أشرق وجهه , نور يضيء من جبينه , سرح بصره بعيدا , خلف طيور بيضاء تحلق في البعيد , كنت اصعد من رابية الى أخرى , يمسك بيدي , رذاذ من المطر , لطيف ينسكب على وجهي , كانت دراكولا تحضنني بحب , لم يا بنيتي , توقظيني من أجمل حلم .. ؟ , رأيت بروك تقف قرب رأسي , قالت : سواق المدير ... (أبو علي) ينتظرك عند الباب ؟ , سألت : لماذا لم تقلطونه (تقدمون له واجب الضيافة) ؟ , أجابت : رفض : يريدك بأمر ضروري , لبست ثوبي على عجل , اعتذرت عن تصرفي الليلة الماضية : اعذريني يا بروك , استسمحي من العيال , مشكلتكم تتوقعون أن أباكم رجل آلي بلا مشاعر , اشارت بروك : انس يا بن الحلال . قلت : بروك , والله يعز علي أن لا أرفه عنكم ,أن أجعلكم سعداء , لكن رغما عني , طيبت خاطري . استعدت قلب الاسد الذي يرافقني في مواجهة أوغاد

الضعوي وأوباش الإدارة , نزلت السلالم , سلمت على (أبو علي) , نثر كنانته أمامي , أظهر سحلياته وثعابينه وضفادعه النافقة : هل تذهب , معي يا مؤلف , كما ترى لم يبق من أولادي من يغني أو ذي بال ؟ , كشرت عن أنيابي : أبو علي , أنا سأذهب بسيارتي , جزاك الله كل خير , لكن أين يريدنا المدير أن نجتمع ؟

قال أبو علي : لا يهمك يا مؤلف , أنا أوصلك , كما ترى , أنا غير مسلّح , شكرته , على طيبته , يائسا مني : كما تحب , الاجتماع في استراحة الشاب المترجم , أردت أن أسأل أبا علي عن العلاقة بين المدير (أبو نايف) عليه اللعنة , والشاب المترجم , أمسكت لساني , حين رأيت بعض الضفادع والثعابين والسحالي تتحرك .

تحزمت بالدهاء , في مشواري المجهول , ما ذا يريد المدير , مني , يلح في وجودي , هل يدبر لي مكيدة , هل سمع عني من واش أو حاسد ؟ , حامد ثعلب الفرص , أم غصن المتملق , يجب أن احفظ لساني , كل ما يأتي سيكون سهلا , الانتقاد مرفوض , المدير ملاك منزه لا يخطئ , له الفضل في استقرار الأسواق المالية , رددت بين وبين نفسي , موشحات النفاق التي يطرب لها , هو الشاعر , الفارس الذي لا يشق له غبار , الحكيم يؤخذ من حكمته ما يحول بين المجتمع والدمار , مشكلتي أن المدير حين يريد وضع الشرك بقدم امرئ , يقربه له , حتى يأمن , ثم ينقض عليه , صياد بارع هذا الإنسان , والا لما بقي في منصبه كل هذي الأعوام الطوال .

دخلت الى الاستراحة , استقبلني الشاب المترجم بحفاوة بالغة , الظنون تجعلك تسئ فهم الآخرين , قابلته ببراءة الأطفال , وضعت قلب الأسد قريبا , تحررت من خوفي , نهض (أبو نايف) صافحني , كان الى جانبه حامد , وغصن , وبعض الأشخاص لم أعرفهم ليسوا من الادارة , لا شك أنهم من أصفياءه , جلست بكل ما عرفته عن نفسي من أدب المجالس .

تحرر المدير من شماغه , يعني ذلك الجلسة مفتوحة , غير رسمية , كان يغطي مقدمة رأسه بما تبقى من شعر صبغه بلون أسود كالح , أعاده من الجانب ليغطي الفراغ , نظر نحوي : هل تعشيت , يا مؤلف ؟ , أجبت : الحمد لله , يا أبو نايف , تبادل الأحاديث في بعض الشؤون العامة . المدير لا تدخل السعادة الى قلبه اذا لم يتحدث عن نفسه . الكتاب المترجم كان في نسخته الأخيرة , عرض علي الشاب النسخة النهائية , اطلعت على الفصول المشوهة عن ما يعرف بالثورة المغدورة ,

بعض الوثائق من السفارة الروسية , تساءلت , لم هذا الحرص على كتاب , لن يقرأه أحد , لشعب لا يجد الوقت ليعيش فضلا , عن أن يقرأ , رأيت اسمي بالخط الكوفي , تحت بند مراجعة الأستاذ المؤلف , وترجمة الشاب . جاء الجواب سريعا من المدير , هذا الكتاب سيظل في المخازن , لن ينشر , استغربت من الجهد الضائع , أكل الفضول قلبي , تحرر لساني الذي طالما أوقعني في شر أعمالي , رأيت الحرج على وجه الشاب المترجم الذي لم يترجم كلمة من الكتاب , نظر للمدير : أقوله يا بو نايف ؟ , رد بلا مبالاة مصطنعة : قل , شرح لي الشاب , أن الدولة تصرف مكافأة للكتب المترجمة من وزارة الثقافة , تعادل اربعمائة ألف درهم , أخرج العقد الذي أمضاه المدير بصرف مكافأة للشاب بالمبلغ , شعرت بالغبن الشديد , سألت : طيب , والصحف التي تنشر عن الكتاب ومترجمه , هذا ألا يجعل الناس تبحث عن الكتاب , أو على الأقل تتساءل ؟ , ضحك المدير : خلهم يدورونه (آدي دقني لو وجدوه) , اتضحت الصورة في ذهني قليلا , هذه الفواتير التي يرسلها أبو نايف , تصرف نهاية العام من ميزانية الادارة , خلاف الانتدابات التي يضاعف مبالغها , لم أكن في حاجة الى ربط المدير بالشاب , فضلا عن أنه يمت له بقرابة من جهة الأم , فإن المدير يشترك مع الشاب في ملكية أحد المخططات العقارية , التي حصلوا عليها بمنحة من أحد المتنفذين . سكتُّ على مضض , كانت سكاكين حادة تمزق قلبي , كيف تحدث سرقة مثل , هذه أمامي , هيّا أيها المؤلف : أين المثل والقيم التي عشت أسيرا لها مدى حياتك ؟ , نظرت الى سقف الصالة الفاخرة , نظرات ابنتي البريئة , دموعها , جعلت الشيطان الأخرس يتغلب على الحق الأبلج , هتف المدير بصوت عميق للمترجم : هيا , أنت ما تريد تكرمنا ؟ , نظر الشاب ناحيتي محرجا , ربت على كتفه حامد : لا تخف , منه , هذا منّا وفينا , أكد المدير على كلامه , بهزة رأس , نهض الشاب الى الثلاجة , أخرج قوارير نضرة , وكؤوسا دهاقا , لم يكن للتغابي أي دور , حاولت أن استغفل , لكنها خمرة , لا مجال للشك . أشار المدير , هاتوا له شيشة , أنا أعرف أنه يشيّش , أنكرت , قطع انكاري غصن الحقير : هذا يخرج من الدوام ليتعاطى الشيشة في مقهى (عندما يأتي المساء) , قال المدير : هاه يهرب من الدوام ليشيّش ! , نعم , هذا صحيح , لأفرغ حقدي على الشيشة بدلا منك أيها المتسلط , في قرارة نفسي . نهض الشاب بعد أن سكب من الشيفاز في الكؤوس للحاضرين , استدعى عاملا أسر بأذنه كلمات , بعد برهة , حضرت شيش لي وللمدير وحامد , كما قالوا : اذا لم يكن بد من الاغتصاب , على الأقل , استمتع , علقت شماغي على أحد المشاجب , بدأ السكر يسري في القوم , بدأت الأرانب

تخرج من أوجارها , سحبت من الشيشة , الطعم غريب , لم يكن سيئا , لكنه , جلب الى عيني , ألوانا زاهية , تجرعت كأسي , نسيت الحذر والتوصيات التي حقنني بها عقلي الحكيم , لم تبد لي أي لمحة فهم , لم أنا , لم يريدني المدير , هل سيشتري صمتي عن السرقات , هل سيعرض على رشوة ما في موضوع الكتاب المترجم , قطع حبل أفكاري المنافق حامد , متسائلا : أبو نايف , بالله عليك يا أبو نايف , قل لنا , كيف أقنعت شوارزكوف بخطة درع الصحراء ؟ , تمنع أبو نايف , بشكل مبالغ فيه : لا , لا , ليس هذا وقته . أصر حامد , يعرف , بأن تلك الممانعة مصطنعة : لا , يا بو نايف , لا بد أن تخبرنا , سلّم أبو نايف بالأمر , أخرج من جيبه الأرانب التي ملأت الاستراحة , انشكح على الآخر , وضع قدما على أخرى , سحب من الشيشة , نفخ بالهواء : كما تعرفون , أن الوضع كان متأزما , كانوا يستهدفون الساحل , لو حدثت هذه ستكون كارثة على التحالف , سيتعقد الأمر , لم أكن لأسمح بفشل ذلك الأمر , ركبت مع السواق أبو علي , حتى اسألوه , قلت : هيا , تحرك على خيمة شوارزكوف , هذا الأبله الغبي , جئناه بليل . سايرت الوضع : صحيح بالله يا بو نايف ؟ , هز رأسه الشيطان الذي كان قد اتخذ مكانه بقرب أبو نايف , بعد أن أزاح بعض الأرانب الكسولة التي لم تتقافز لكلام المدير ,نظر أبو نايف ناحيتي :, مثل ما قال أخوي (يشير الى الشيطان البرئ) للمرة الثانية أكد على كلامه . أكمل : طبعا , منعوني حرسه الخاص , بحجة أنه لا يستقبل مدنيين , تكلمت معهم بالإنجليزي , لقد ذهل أبو علي من فصاحتي , سألني كيف تعرف , انجليزي يا بو نايف , لا أعرف , لكنه توفيق من الحكيم العليم , ضحكت في سري من انجليزيته التي لا تزيد عن yes و no , مضى أبو نايف يسرد أكاذيبه , حاصرتنا الأرانب , تزاحم الشياطين ليحضروا هذه الحفلة , شعرت بجسمي خفيفا , كنت أطير وأعود الى المجلس دون أن ينتبه لي أحد من الحاضرين , الشاب المترجم بدأ يهتز في كلامه , قطع كلام أبو نايف الذي أنقذ شوارزكوف من الفشل : لن تحضر الفنانة والراقصات يا بو نايف , صفق بيده : خسارة , الليلة , هذي تبغي طرب ووناسة , سيصمت وينسى قصته الكاذبة , لم يتركه حامد : هاه .. وش حصل بعدين ؟ , تذكر قصته , لسانه أصبح ثقيلا , أكمل : شوارزكوف , كان مرعوبا , أيقظوه من نومه , فردت أمامه الخريطة , شرحت له الخطة , اقتنع , قبّل رأسي , قال : الله يوفقك يا بو نايف , انقذتني من الفشل , ومن لسان (بوش الأب) السليط وزوجته بربارا , عدنا بعد ذلك أنا والسواق , والذي يريد يتأكد من هذا يعود لمذكرات شوارزكوف باللغة الانجليزية , النسخة المترجمة لا يوجد بها ذلك , من الذي سيؤكد كلامك يا بونايف ؟ , لم

يطل تساؤلي , نطق غصن : عندي نسخة , وفيها صورة أبو نايف مع الجنرال , وكامل القصة . داخلني الشك , معقول هذا ؟ , شيطاني حضر , أخذ اللي(أداة توصيل الدخان الى الدماغ) مني , سحب أنفاسا من الشيشة غريبة الطعم والرائحة , تجولت , حلقت الى السماء , تراءت الدنيا بنظري تافهة , الهموم كانت من الضآلة أن لا أفكر حتى بها , استغربت من اللامبالاة التي حلت على روحي , انتزعت اللي من شيطاني , بدأت أعلو وأعلو , ضحك بصوت مجلجل غصن : أبو نايف , شف المؤلف بدأ يسكر , التفت ناحيتي المدير , نهضت , احتضنته بغرابة : والله كنت أبغض الناس لي , وأنت الآن من أحب الناس الى قلبي , فوجئ المدير بحركتي تلك , دائما تهبط على الناس لحظات غريبة , يقومون فيها بتصرفات غير مفهومه , أمسك بي : المؤلف بحاجة الى حنان , يبي له انتداب الى المغرب , يغسل قلبه من الحرمان . حقيقة كنت أظن الوقت متأخرا , لكن لم يمض من الليل الا نصفه , بدأ الزمن لا نهائيا , ملايين الأفكار , تعبر رأسي , قادرا على أن أفعل كل شئ , شعرت بسعادة غريبة , نهض الشاب المترجم , توردت خدوده التي بها حرز مكين عن أشعة الشمس الحارقة , حرك الجرامافون بصوت كوكب الشرق , أنا في انتظارك مليّت . الشياطين بدأت الرقص , الأرانب تخرج باستمرار من فم وجيوب أبي نايف , حركت أقدامي , وقفت , اختطفت عقالي , بدأت اضرب الشياطين , اركل الأرانب , ضحك الحاضرون , بلؤم حدّق بي حامد : اجلس يا مؤلف , لا تفسد الليلة .

الفصل العاشر / المواجهة ..

(لا يكون القانون قانونا , حين يخضع لإرادة البشر)

اليوم الذي يلي تلك السهرة , لم استطع رفع رأسي , حاولت بروك أن توقظني , أفتح عينيّ ثم أعود الى دوامة , وضعت القهوة التركية حول رأسي , اخرجت ولولة , الدوام يتصلون بك , الساعة تجاوزت التاسعة , نهضت , سقطت , مشيت

بتثاقل , رأسي ليس من أعضاء الجسد , من سنوات أصبح كذلك , حاولت أتذكر الليلة الفائتة , لم استطع , رفعت السماعة , غصن المتملق : المدير يسأل عنك , لماذا لا تداوم , فركت عيني , بدأت ليلة البارحة تطرق رأسي : لا أستطيع , من ليلة البارحة التي سهرنا مع المدير , بغرابة قاطعني : أي ليلة , انت تهلوس ؟ , كانت بروك تقف بقربي , طلبت أن تحضر القهوة , ذهبت , تلتفت إليّ بارتياب , أعدت كلامي , يبدو على غصن الإستغراب , لا لم يكن حلما , اقفلت السماعة تحت تهديد غصن الذي ينقله من المدير مباشرة بالحسم والويل والثبور وعواقب الأمور.

لا زال رأسي يدور مع صوت أم كلثوم (أنا في انتظارك خليت , ناري بضلوعي , وحطيت ايدي على خدي , وعديت بالثانية غيابك ولا جيت ... يا ريت يا ريت ... يا ريت ..) , ياليت لي ملجأ من وحشة الكون القبيح , جاءت بروك بكوب القهوة الذي برد , بادرتها : بروك , كيف أتيت الى المنزل البارحة ؟ , قالت : لا تتذكر , صحيح ياموؤلف ؟ . أجهدت ذاكرتي لم استطع : لا , لا أذكر شيئا , بصوت فيه من العطف أكثر من التأنيب : جاء بك بعض أصحابك بسيارتك , في آخر الليل قبيل الفجر . زادت حيرتي : لماذا يحضرني أصحابي ؟ , بصوت مفاجئ : أنت ياموؤلف , كنت سكرانا البارحة , الله ستر علينا , ما أحد شافك من الجيران ؟ , سكران , سكران , أيعقل هذا ؟ , بين الحرج من بروك والتشويش ليلة البارحة , جلست على الأرض , شربت القهوة , خاطبت بروك برسمية : أكيد , هناك سوء فهم , يمكن أغمي علي , أو أني مريض , هل رآني أولادي بتلك الحالة ؟ , نفت بهزة من رأسها . تعدل مزاجي قليلا بعد أن تناولت البنادول , لكني لم استطع أن أذهب الى الدوام , غفوت قليلا , الضجيج في رأسي يخفت , نهضت , ارتديت ملابسي بعجلة , أمسكت بيدي : أين ستذهب الآن ؟ , دون أن التفت : ما عليش , عندي شغل ضروري , نزلت السلالم , ذرات الغبار تهبط من السماء , عاصفة صفراء تجلد المدينة ,بعد أن يحزم الشتاء حقائبه , في كل بقاع الأرض يأتي الربيع , نحن نتأهب لجولات من العواصف الصفراء التي لا تبقي ولا تذر , تحول الحياة الى طاعون أصفر ينتقل حتى الى داخل أفواهنا , يزداد هذا الجحيم حين نستسقي المطر , أطنان الرمال تهبط علينا كل صباح , تغلفنا بالحزن المرير الحركة توشك أن تتوقف , الأتربة تزحف على الطرقات , نفضت التراب عن مرتبة السيارة , حركتها , توزع العفاريت في السيارة , واجمين , حركت رأسي بيأس , لن استطيع

ارغامهم على النزول , مضت الاولدزومبيل , دخل الغبار الصغير الى عيني وأنفي , مع احكام النوافذ الا أني أشم رائحة التراب , نظرت اليهم كأن على رؤوسهم الطير , دغدغت أقربهم الي : لماذا أنتم صامتون ؟ , لم اسمع جوابا , حين يلتزم العفاريت المشاكسون الصمت , أتوجس خيفة من الآتي , ما دمنا أصبحنا أصدقاء بهذا الشكل , لا بد أن يشاركنا أبو نورة لحظة الهزيمة التاريخية , تألقت أعينهم , بريق غريب عندما سمعوا (قلبي اللي لواه من الصواديف لا وي) يخرج من أعينهم , مدجج بالحزن , مضيت الى الاقطاعية للمدير ابن ماء السماء , يمسك مجموعة من الخويا الأوباش صنيتان , يجرون تحقيقا عن سرقة عطور وأكل الكلاب السلوقية , منكسرا , ذليلا يجلس على الأرض , الأتربة تصفع الوجوه , الريح تتناوح في قنوط , تطلع العفاريت المرافقون لهذا الوضع الغريب عقدت الدهشة ألسنتهم , اقتربت من حثالة البدو فاقدي الكرامة والشهامة : ما الخبر أيها الأوباش ؟ , ترددوا قليلا , ابتدرني نقيدان : خويك , طلع سروق , مستفهما منه : ماذا سرق يا نقيدان ؟ , أجاب : سرق من أكل الكلاب , سرق عطور نوف الكلبة المدللة . مقاطعا تهمته غير المنطقية : حتى لو سرق من الكلاب , الانسان أهم من الحيوان , لا يجب أن تهينوه بهذا الشكل المزري , هل الحيوانات في الضعوي أغلى من بني الآدم ؟ , ضحك خوي حقير له رائحة كلاب الصيد : نعم الحيوانات أهم من هذا الصعلوك , بعض مجاهيم وكلاب وخيول ابن ماء السماء , تصل قيمتها الى ملايين الدراهم , وصاحبك هذا لا يعادل ذيل كلب . نظرت الى صنيتان : ماذا ينتظرهؤلاء الكلاب ؟ , بنظرة حزينة ولهجة منكسرة : ينتظرون حضور رئيس الاخويا , حتى يبت بأمري . سمعت جلبة خارج صيوان الاخويا , حضر رئيس الخويا , يلوح بعصاه , يشعر بفخر وعزة لحراسته أشياء الكلاب , ابتدرته : رئيس الخويا , الحلم , احلم , يا طويل العمر , لا يمكن أن تدمر حياة انسان مقبل على الزواج بسبب تافه . أشار لي بإصبعه محذرا , ... أن أصمت , سكتُّ , اقترب رئيس الخويا من صنيتان , رفع يده , لطمه لطمة قوية فوقع على الأرض , حاول أن ينهض ليرد ذلك الكف الغادر الى رئيس الخويا , أحاط به الأوباش , بدأوا بضربه بقسوة , رأيت الدم يخرج من أنفه وفمه , صرخ من الألم , أمسك به الأوباش , أوقفوه أمام رئيس الخويا , صفعه مرة أخرى , نزلت دموع القهر والعجز من صنيتان , عيناه المغرورقتان تطلعتا اليّ مستنجدة , حاولت أن أتدخل , لم يسمع لي رئيس الخويا , فتشوا شنطته , نكثوا ملابسه , أخرجوا علب الطعام المحفوظ , وقوارير العطور المسروقة التي كان سيهديها الى زوجة المستقبل , جردوه من البالطو والشماغ , أصدر رئيس الخويا حكما سريعا بطرده

من الخدمة , وجلده أربعين جلدة , التمس مني العون , لكني لم استطع , تحدث حكيم العفاريت المرافقين بمعيتي : ليحمد ربه , لم يعدموه أو يقطعوا يده اليمنى من الرسغ , الحموضة أحرقت معدتي , بصقت بوجهه , حذرت رئيس الخويا من مغبة هذا الحكم , سفهني : لن تستطيع أن تفعل شيئا , نحن في نهاية الحكاية , في الفصول الأخيرة , تضعف قدرة المؤلف على تغيير الأحداث , رغّبته سوف أجعل منك رئيس الخويا العام لعموم رؤساء الاخويا في بلاد الضعوي , رفض المنصب الذي قدمته له , ركل صنيتان بعد أن جلدوه على قدميه أربعين جلده , خرج من عندهم يمشي بصعوبة , كان الألم النفسي أشد من الألم الذي طال قدميه وظهره ووجهه , احتضنته , بكى على صدري بحرقة : أنا انتهيت يا مؤلف ... خلاص , جربت أن أخفف من ألمه بكلام مكرر, يقال على سبيل المواساة , مشيت بجانبه , عار من الشماغ , يتعثر في مشيته , يحيط بنا العفاريت المشاكسون , هاتفتهم : لا يوجد لديكم , حل , أو وظيفة أو شئ يخفف مصاب صاحبي صعلوك الزمن الردئ , هزوا رؤوسهم بيأس , حدثته : يمكن وجه غزيّل كان شؤم عليك ؟ , لا , لا , ليس لها أي دخل , أنا حظي ردئ , في زمن ردئ , الموت أهون عندي من هذا الموقف المهين , بكى مرة أخرى , لم أجد ما يخفف من أساه وصدمته وكرامته التي دلقت على أقدام السابلة , كرامته التي وزنت بطعام الكلاب , ذكرته بأن وظيفته أساسا بعيدة كل البعد عن الكرامة , وماذا يعني مروض الكلاب ؟ , تجاهلني , رمقني بيأس , كنظر السليم الى وجوه العوّد : ماذا أقول لأمي , خالي , غزيل , الزواج بعد شهر ؟ , لم يكن بيدي أي حل أو مساعدة , قلت : صنيتان , الله يلعن هذا الزمن الأغبر , حتى أبطال الروايات الذين نصنعهم لن يحققوا أحلامهم , الضعوي يا صنيتان بلد يغتال الأحلام , يذروها مع الريح كدقيق على شوك نثروه , ثم قالوا لحفاة ذات ريح اجمعوه .

تركت صنيتان يرجع الى بلدته , لا أرغب في مشاهد الحزن , يكفيني الحزن على نفسي , لم آكل شيئا من الصباح , لا أجد رغبة في الطعام , دخلت مقهى (عندما يأتي المساء) , طلبت من العامل التفاحتين , وكوب شاي , كما ينبت الحزن في مفاصل صخرة , نفثت من الدخان , حتى تصاعد الألم والحزن الى السقف , ساجما , أبحث عن الحكمة في الأوجه الصامتة حولي من بشر الضعوي البؤساء , انهمكوا في مشاهدة الفضائيات التي تبث الأخبار والغنائيات الراقصة , الدخان يتصاعد , أباريق الشاي والمرطبات تروح وتجيء , استفزني هذا الشعب الكسول

, الخامل , لم يتقدم خطوة من خمسين عاما , حركت الجمرات التي بدأت تخبو على الرأس , نهضت , صرخت في الأوجه البليدة : (اللعنة , متى تصبح لكم قيمة , تزيد عن الحيوانات قليلا ؟) , لم يرد أحد , كأنما , أصرخ في الفضاء الفسيح , كررت صراخي مرة أخرى , حضر مدير المقهى , أمسك بيدي : (صديق , ليه , أنت فيه صوت عالي , قرقر كثير ؟) , قلت له : صديق , أنا ما فيه صوت , أنا ما فيه شئ , أنا لا شيء , أنا نكرة , أنا مجهول . دفعت حسابي , خرجت , لا أعرف أين , لكني مشيت , أبصرت قدامي طريقا فمشيت .

توجست شرا , من المدير , لم يطلبني في اليوم التالي , جاء مدير الموظفين غضن الكلب , أخبرني بحسم ثلاث أيام من المرتب , سلمت أمري الى الله , لعنته في سري كالعادة , لكن ما زاد في غيظي وحنقي , رأيت حامد المنافق بكرشته المكورة وعجيزته الضخمة يتمايل , بادرته : حامد , ما هذه المعاملة الغريبة ؟ أجزاء أصحابكم صد ونفور ؟ , عوج فمه بتشفي , لم يرد , وقفت بطريقه : حسنا , أنا مخطئ بغيابي , لكن كيف تجحدون مساهمتي في الكتاب المترجم ؟ , مستغربا : أي كتاب ؟ , صدمت من جوابه , وضحت له الكتاب عن الثورة الروسية , والمترجم الشاب والمصري الكهل , والاستراحة التي جمعتنا سويا , لم يظهر عليه الفهم , سألته / هل ظهرت أسماء الموظفين المنتدبين الى المغرب , هل اسمي معهم كما وعدني أبو نايف ؟ , ضحك بلؤم أهل الضعوي , بخباثة قل أن توجد الا في الموظفين القدامى : لا , اسمك ليس موجودا في انتداب المغرب , هذا حلم بعيد على شواربك . أظلمت الدنيا في عيوني , فقد كنت آمل أن ينتدبوني للمغرب , لعلي استطيع دفع الفواتير التي تتراكم عند أبي ظافر , ومستلزمات الحياة التي أوشكت تخنقني , اندفعت الى مكتب المدير القذر (قذر كلمة قليلة في حقه , حتى زيادة في القذارة لا تنطقها كالقاف العربية الفصحى , بل كالجيم المصرية أو حرف g الانجليزية) , حاول سكرتيره أن يمنعني , دفعته , دخلت , من وراء مكتبه رفع بصره باستهتار : وش عندك ؟ , وقفت قريبا منه لازال مكتبه الدائري يحول بيني وبينه , المكاتب الدائرية ليست للوجاهة , لكنها لحماية الفاسدين في الضعوي : أبو نايف , اسمع , هذا ظلم أن تحرمني من حقوقي ؟ كان شيطان النفاق يريد أن يضع على لساني كلمات من نمط / أنت انسان عادل , لا ترضى الظلم , لكني صددته بقوة . رد بهدوء : أي ظلم , أنت موظف مهمل , كثير الغياب والخروج من العمل , شرحت له , لست أنا من يغيب , هناك موظفين ,

أنت تعرفهم , جيدا يا أبو نايف , لا يعرفون طريق الادارة منذ سنين , مع ذلك لم يحسم عليهم , ترسلهم انتدابات في العام أكثر من مرة . أظهر دهشة كاذبة : مثل من ؟ , عددت له الأسماء , حتى حامد وغصن لا يداومون كما أفعل . بدأ يستخدم مهارته في الحديث , يرتدي ويخلع من أردية الحرباء التي يملك منها الكثير , لم أقتنع , نظرت له : أبو نايف , احذر الحليم اذا غضب , صرخ بقوة : تهددني , اطلع برّا , اطلع برّا , فليكن تستطيع أن تطردني من منزلك , لكن مكاتب الدولة , أنت تخسى وتعقب (خسئت يا شرذمة قوم هالكين , عجوز متصابية , تدس الى العطار سلعة أهلها , هل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟) , هل يصلح المنصب الوظيفي أخلاقك الواطية , ارتجف من كلامي , اكتسى وجهه اللون الأصفر الشاحب . لم يعتد في حياته الا كلمات النفاق والتمجيد في شخصه التافه , حضر الموظفون الأوباش على الجلبة والصراخ , خشيت مصير صنيتان باللكم والضرب , احتواني موظف ضخم الجثة كبغل , جمعت قبضتي , لم استطع حراكا , أشار لهم : أخرجوه , غدا يتم التحقيق معه . أخرجوني أتميز من الغيظ والغضب , هانت في نظري الدنيا , أحسست أن هذا آخر يوم لي في الحياة , إن لم يكن من الموت بدُ , من العار أن تموت جبانا , جاء المؤنبون والشامتون وهم كثر في الإدارة وأكثر في عرض الحياة الدنيا الزائلة .

خرجت من إدارة نشر الكتب المترجمة من اللغات الحية الى اللغة الميتة , لم تقدم للوطن الا مزيدا من الكذب والهراء , اضمر النية بتقديم شكوى في المدير الوصولي , الكلب , ليكن ما يكن , أشفى غليلي منه , هذا كل ما أريده الآن . دخلت الى المنزل , فاجأتني ابنتي الحبيبة , لم تعتاد على مجيئي بمثل هذا الوقت , بحنان وعطف ضممتها لصدري : أي مصير ينتظركم يا أطفالي ؟ , سبق أن قلت هذا الكلام , وسأظل أقوله , حتى يواريني الثرى .

كتبت شكوى طويلة عن تجاوزات المدير وعصابته في ترجمة الكتب التي سرقت ولا زالت تسرق , دبجتها بالآيات والأحاديث والشعر , الفساد لا يضر الحاضر فقط , أنه يدمر المستقبل كلية , يجعل الأطفال على حافة الهاوية , كل أطفال الضعوي ينتظرهم مصير أسود .

الفصل الأخيـــــــــــــــر/

النهاية .....

(ملعون من علّق آماله على البشر)

بعد كتابة عريضة التظلم , بكل ما أعرفه عن سرقة الملايين التي ينهبها رئيس المافيا مديري النتن, الانتدابات التي يبالغ في مصاريفها , الفواتير التي يزورها من شركات الحاسب , محلات الأثاث , الفنادق , شركات الطيران , وكالات السيارات , له في كل فاتورة صغرت أو كبرت طريقة ينهب ويضع في حسابه الذي

يتضخم ويتجاوز مئات الملايين , رغم حيازته لهكذا مبالغ هائلة , لا يستنكف أن يسطو على مبلغ تافه , مثلا يقيم حفلة شاي لا تكلف مائتي درهم , يجعلها ألفي درهم , يضعها في حسابه , بالله ماذا تساوي ألفي درهم مقارنة بحسابه , لكن حسابه يوم الحساب يوم لا ينفع مال ولابنون .

أنهيت خطابي , لكن لمن أوجهه , أين الرجل الأمين الذي سينظر اليه قبل أن يقرأ محتواه , الأمانة لفظت أنفاسها الأخيرة , كنت موجودا ذلك اليوم الذي شيعوها الى مثواها الأخير , حملت النعش مع رجال عصبوا العصائب على رؤوسهم , حملنا النعش على أعناقنا , قطعنا طريقا طويلا , أخذ منّا التعب والانهاك , اقترح أحدهم أن نريح أعناقنا , أنزلنا النعش لنريح بضع ساعات , سنة من النوم طرقت أجفاننا , استيقظنا , لم نجد نعش الأمانة , النعش الذي يحتوي جثة الأمانة , سرقه الذين لا يخافون الله , سرقوها قبل أن ندفنها , أو حتى نعرف لها قبرا معلوما , تفرقنا نبحث عن شهيدة الضعوي , لم نجد أثرا لها , إن سمعت أو رأيت رجالا غائري الأعين , معصوبي الرؤوس , فهم لا زالوا يبحثون عنها , إن سمعت أنهم وجدوا قبر الأمانة أو قيل لك في تلك الناحية أو تلك البلدة فلا تصدق , تلك اشاعات . طرأ على بالي رجل (يقال) أنه شريف ونزيه وأمين , عينوه قبل فترة زمنية قصيرة رئيس مكافحة الصراصير والحشرات الناهبة , رجل الصابون الأول في بلد الضعوي , استبشرت خيرا , أبثه شكواي , لعله ينتصف لي , ينتصف لمواطني الضعوي , للأجيال التي ستصحو غدا على بلقع من الموارد , ستفتح أجفانها على الريح التي تسفي التراب , على أرض قاحلة جرداء , بينما يكون المدير وأولاده وأحفاده يعيشون في مزارعهم ومحمياتهم في بلاد الخضرة والماء والوجه الحسن بعد أن نهبوا من بلاد الضعوي كل مقومات الحياة وهاجروا .

أنهيت تقريري , بعثته الى رجل الصابون , حقق معي حقراء الادارة , لم يتركوا شيئا , لم يكتبوه , على قلق , انتظر طردي أو سجني , في الليل أصحو على أي صوت مفاجئ , (لستم بمعجزين) تهديد المدير , ظل يطاردني , حياتي أصبحت موحشة , كئيبة , أسوأ ما تتوقعه لن يكون أقسى من الانتظار , فتحت صفحة (صعلوك الزمن الرديء) , رأيته يعمل معاونا أول لخاله في توزيع المخدرات , كانت تربية الماشية غطاء للأعمال المشبوهة التي يقومان بها , عاتبته , ضحك : متى تنهي القصة يا مؤلف وتختم بجملتك السحرية (عاش في سبات ونبات , وخلّف بنينا وبنات) ؟ , قلت : صنيتان , خلّف جهلا وهلاك , هذا طريق خطير, يؤدي الى هاوية سحيقة .

أصبحت منبوذا في الادارة , تحاشاني الموظفون , أفردت افراد البعير الأجرب , توالت تحقيقات الادارة عن التسيب والاهمال , توالت الحسميات , توقعت طردي بالقريب العاجل , انتظرت نتيجة الشكوى لم يحدث شئ , في يوم كنت راجعا , وردني اتصال من رجل الصابون , فرحت ستأخذ العدالة مجراها , ذهبت الى المبنى الأنيق النظيف , أدخلت الى مكتب فخم , حقق معي موظف , كانت الاسئلة بعيدة عن المدير , كل الاسئلة تدور حولي , عجبت لتلك الأسئلة , قاطعته : أنت , لا تسأل عن الشكوى المقدمة في مدير ادارة الكتب المترجمة , أنت تسأل عن حياتي الشخصية ومؤهلاتي وكأني أنا المجرم . لملم أوراقه وخرج , عاد بعد قليل , بلهجة صارمة : اسمع الشكوى مقدمة ضدك من مدير شؤون الموظفين بالتسيب والاهمال , ومحاولة تمرير ترجمة كتاب مشبوه . صفقت كفا بأخرى : أي كتاب تتحدث عنه ؟ , أخرج كتابا من درج مكتبه , دفعه الي ببطء , صعقت كان كتاب الثورة الروسية الذي عملنا عليه مع المدير والمترجم الشاب , لكن لم يكن هناك الا اسمي , ترجمة ومراجعة المؤلف . مندهشا لهذا التزوير : يا سعادة الموظف المحترم , كيف أترجم كتابا من لغة أنا لا أجيدها ؟ . رد بهدوء : هنا هي المشكلة , أنت تريد أن تمرر الكتاب من خلف المدير وتستعين بمترجمين غرباء دون تصريح رسمي . تلك كانت تهمة خطيرة اذا ربطت بسياق الأمن , بدأ الموظف يلمح الى جهات أجنبية , الى خيوط مؤامرة تنسج لتدمير الروح الوطنية , فائدة التعاون مع التحقيق , ضرر الانكار

نغصت حياتي كثرة التحقيقات , كانوا يستدعوني في شتى الأوقات , في الليل البهيم , في الصباح الباكر , أحسست أنهم في بلد الضعوي لا يحبذون الشكاوى , حين تشتكي لغير رب العالمين , تكون حكمت على نفسك بالشتات , تكون قد ودّعت الراحة , استقبلت الأيام السوداء , كل ذلك حتى تصبح عبرة لمن تسول له نفسه الأمارة أن يشكو مسئولا , فالمسئولون في الضعوي هيبتهم من هيبة الدولة , هم فوق ذلك منزهون لايأتيهم الباطل من أمامهم أو من خلاف . كرهت نفسي , يأست أن أنال حقا من شكواي , ضاعت الشكوى بين الملفات التي تداولها المحققون . في أثناء التحقيقات صدرت ترقية المدير القذر الوصولي المتلون الى وزير الثقافة والترجمة , استحدثوا له وزارة ليأخذ من نصيب الأجيال ويطعن الثقافة في مقتل . صدرت الصحف تحمل ابتسامته الكريهة , استغليت الفرص ,

اشتريت كما من الصحف , نزعت اسم الجلالة والآيات الكريمة , أبقيت على صوره المتعددة , يسلم خطابات شكر , يستقبل وزير ثقافة موزمبيق , يحضر سباق الفئران المئوي , يدشن ثقافة الحمير الوحشية , يقص شريط العالم الفطري , فرشتها على ممرات المنزل , كنت أدوسها يوميا بقدمي , أضع الحذاء , بالأصح بوز الشبشب في فمه , أبصق عليه , أحيانا آخذها الى أماكن قذرة لن تكون كقذارته , أشعر بعد كل عمل من أعمالي براحة نفسية تامة .

لم يطل الزمن , أصبحت محاطا بالنظرات , شعرت بمن يراقبني , صدر قرار فصلي من الادارة . حضر أبو ظافر , طلب اخلاء الشقة ليزوج ابنه ظافر , نقلت بروك وأطفالها عند أخيها , في يوم أمسك بي رجال , أخرجوا أوراقا بالقبض علي , ذهبت معهم الى مكان مجهول , انعدم احساسي بالزمان والمكان , استمرت تحقيقات تدور حول العمالة والخيانة , خاطبتهم بيأس : والله أنتم تضيعون وقتكم بمطاردة الأبرياء , الخونة والعملاء هناك يسرقون بلد الضعوي , الخونة يدمرون المستقبل , يقتلون الكرامة بالبشر , يذلونهم , يهينوهم بلقمة العيش , ولا تستطيعون لمسهم .

أدخلوني غرفة ضيقة متر في مترين , بحفرة وصنبور ماء , وفتحة وحيدة يرمى منها الأكل ويمرر الماء , ظننت في البداية أنها ستكون مؤقتة , ثم استمر الوضع , قطعت الأمل بالنجاة , أرفع صوتي , أخاطب جدرانا صمّاء , أنى تجيب غير الصدى , بدأت تتداخل أفكاري , هل حقيقي ما يجري هنا أم حلم استيقظ منه بعد قليل ؟ اختفت السماء السوداء التي لم تعجبني , حيرني أن لم يسأل عني أحد , انقطعت عن كل شئ , في البدء , كنت أخمن الأيام , بعد فترة لم أعد أميز الليل من النهار , أضع أذني على الجدران لعلي أسمع صوتا أو همسا , يشعرني أني من الأحياء , بقيت صلتي بالعالم الخارجي وجبتين في اليوم ترمى لي , وأعيد ما تبقى من الفتحة الوحيدة في الغرفة المصمتة , أصرخ ولا أسمع جوابا , ها ها ها ويعود الصدى هي هي هي , با با با ويعود الصدى بي بي بي , بدأت الهلاوس والتشويش تعزز مكانها في عقلي , كل ليلة كان الموتى يحضرون قصصهم في الحياة الفانية ويسردونها على رأسي , حين أنساها يعودون في اليوم التالي ليعيدوها بحذافيرها , حفظت كل القصص التي يقولون , أحيانا يشتد غضبي فأصرخ بهم : كفى , لقد سمعت , هذا من قبل , ينصرفون ليعودوا في ليال لاحقة , كوابيس لا تنتهي الا لتبدأ من جديد و تلمست وجهي , لحية كثيفة تنغرس في وجهي , ثيابي تلتصق بجسدي , فترة طويلة لم أغيرها , اذا لم أمت من الوحدة

ومن زيارات الموتى , سأموت من القذارة التي حاربتها في حياتي , من القذارة التي رأيتها في المدير , هل يعقل هذا ؟ , لو لم أكن رجلا يؤمن بالله واليوم الآخر لفكرت بالإنتحار (بالله , كثّر منها) .

على الأقل يقولوا لي كم سأمكث , عشرة أعوام , عشرين , ثلاثين , أو اعدام , الموت أهون عندي مما أكابده , اشتقت لأبنائي ودراكولا , حتى ولا زيارة , أي وضع بائس , رمتني به أقداري ؟ .

في ليلة بعد أن ذهب الميتون وأنهوا حكاياتهم المكررة , رأيت صدفة صاحبا قديما لي , فرحت , نهضت , أمسكت بثوبه : صنيتان , تذكرني , ولا شك ؟ , نظر الي بشفقة : المؤلف , المؤلف , أي وضع مزري , تعيشه ؟ , قبلته , احتضنته : صنيتان , بالله عليك , اذهب لأهلي , وصهري , وأولادي وابنتي دراكولا , دعهم يزوروني هنا , أنا مشتاق أن أراهم , أن اقبل ابنتي الحبيبة , أنا يا صنيتان سأقبّل أبا يوسف , سأقبّل حتى بطاريقه الباردة , سأقل أبا علي وسحلياته الجميلة , فقط أن أعود لحياتي السابقة , بكل مرارتها , ضحك صنيتان , تشقلب في الهواء مرتين : يا مؤلف , كم مرة , أخبرتك , بأنك وهم , لا توجد الا في عقلي أنا . صدمت من نكران الجميل : صنيتان , هل نسيت جميلي , حين وظفتك خوي مع ابن ماء السماء , كيف تطعنني من ظهري ؟

أمسك بي صنيتان , أجلسني على أرض الغرفة الملساء ذات الفتحة الوحيدة التي لا ترى الشمس , لا تحزن يا مؤلف , كما أخبرتك أنت لا توجد الا في ذهني أنا .

حنقت عليه : كيف , تتفوه بمثل هذا الكلام , هل يعني أنا كنت أتخيل هذه الحياة التي كنت أعيشها , بروك شيلدز , الأولاد وابنتي دراكولا , المدير الملعون , وحاشيته المنافقة , العفاريت الذين يخطفون المارة ؟ . بهدوء رد : لا يوجد بروك , لا يوجد دراكولا , لا يوجد مدير ولا حاشية , ... قاطعته : اذن , هذا السجن الذي أنا به الآن ماذا يكون ؟

لاشئ من هذا , حتى السجن غير موجود الا في خيالي , أنا وضعتك هنا , كي لا تفسد حياتي , هم بالإنصراف , تمسكت به : صنيتان , بحق الصحبة , لا تتركني في هذا المكان الموحش . خرج من خلال الجدران الصامتة .

أولا يجب أن أتأكد بأن تقويم السنة الجديدة على منضدتي , لأني لم أفتتح تقويم السنة الماضية , لسبب ما , تبقت كل التقاويم التي توزع في المكتبات والهدايا المجانية في علبها دون أن يكون لها قيمة , ثانيا يجب أن أنفض تقويم السنة الجديدة لئلا تكون هناك أيام هاربة من السنين الماضية تختفي في التقويم الجديد , يحدث في أحايين أن تتكرر نفس المشاهد في حياتي . تفقد بوصلتي اتجاهها أثناء النوم , تختلط المشاعر , فأشك هل أنا نائم يقظ أم يقظ نائم .

تمت

victorsemos@hotmail.com